A.U.B. LIBRARY

F
728.81
R138q
c.1

عبد الكريم رافق

قلعة سمعان

رسالة جامعية

أعدت باشراف

الدكتور جورج حداد

العام الدراسي

١٩٥٤ ـ ١٩٥٥

الجامعة السورية ـ كلية الآداب

المخطط

صفحة

المقدمة

العمود يون :

آ ـ القديس سمعان : ٣

نشأته

تنسكه

فكرة الاعمدة

شهرته

عجائبه

وفاته

ب ـ العمود يون الآخرون

قلعة سمعان : ١١

لمحة عن آثار جبل سمعان

الاصالة الهندسية في البناء

القلعة وتاريخ بنائها

آ ـ المخطط والاقسام :

الرواق والجناح الجنوبي

الجناح الغربي

الجناح الشمالي

الجناح الشرقي

البناء المثمن

ب ـ السقف

ج ـ الزخارف

المدينة او الدير : ٢٣

آ ـ المخطط والاقسام :

الدير الجنوبي

الدير الغربي

الكنيسة الشمالية

البندوكيون الكبير

ب ـ الزخارف

الترميمات قديما وحديثا ٢٦

المقدمة :

يتعاظم الاهتمام بالآثار السورية عاما بعد عام لما تعبّر عنه هذه الثروات الأثرية من تاريخ طويل ودور هام في تطور المدنيات . ولا عجب ان تساهم البعثات الأثرية العالمية في الكشف عن هذه الآثار وان تتسع حركة السياحة في البلاد . وقد اصدرت مؤسسة الاونيسكو ومديرية الآثار العامة السورية ، مؤخرا ، تقريرا مفصلا بعنوان " سورية " ينوه بأهمية هذه الآثار من الوجهة المحلية والوجهة العالمية وقضايا حفظها والاستفادة منها .

ان قلعة سمعان هي احدى هذه الآوابد الكثيرة التي عكف مهندسو الآثار الغربيون على دراستها والكتابة عنها منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد اظهروا أهمية وعظمة الفن الهندسي الذي يتجلى فيها . الّا ان هذه الدراسات اقتصرت على اللغات الاجنبية . وكل من يزور القلعة اليوم يتشوق الى معرفة الكثير من تاريخها ويشعر بنقص مابين يديه عنه . وقد سبق ان زرتها في خريف العام الماضي ففكرت ان اجعل منها موضوعا لرسالتي . وقد قسمت البحث الى قسمين ، اذ توخيت ان أعالج في القسم الاول حياة سمعان الذي اقيمت على شرفه هذه الكنيسة والذي تتضارب الروايات في اخبار تطرفه ونسكه . ثم انتقلت في القسم الثاني الى التحدث عن الفن الهندسي الديني في تلك المنطقة بوجه عام وفي القلعة بوجه خاص مظهرا الاصالة في البناء والتأثيرات التي يمكن ان تكون قد انتقلت الى الغرب . وقد ابقيت المصطلحات اللاتينية بجانب ترجمتها العربية بسبب الاختلاف في تفسيرها ، كما اني اقتصرت في وصف تفاصيل البناء وميزاته الفنية والزخرفية على ما هو ضروري .

واخيرا أقدم شكري الى كل من ساعدني في الحصول على المصادر وفي اتمام هذا العمل وأخص بالشكر استاذي الدكتور جورج حداد الذي أشرف على هذه الرسالة وزوّدني بتوجيهاته .

العمـــوديـــون

ان آثار قلعة سمعان قد تجتذب بعض الناس اليها وهؤلاء الذين تجتذبهم يحاولون معرفة شيء عن حياة هذا الرجل الذى اقيمت القلعة حول عموده . وتاريخ البناء كتاريـــخ حياته ساحر قوى ومثله وصلتنا اخبار حياته متقطعة غير وافية . ومن المؤكد اننا نعـــرف الكثير عنه لأن ترجمته قد كتبها مؤرخون معاصرون عاشوا في عالم كان يقدر مزاياه ويجلها . الّا ان هنالك كثيرا من المعلومات التي تنقصنا عنه وكثيرا من الاضافات التي نشك فـــي صحتها . وسمعان هو اول شخص في قائمة العموديين الذين توالوا بعده وهم اشبه فـي حياتهم بالنسّاك القدماء في الكنيسة المسيحية الاولى مع فارق واحد : هو ان هـــؤلاء الاخيرين كانوا منقطعين عن الدنيا في صومعة على مستوى الارض بعكس العموديين الذين اتخذوا لهم امكنة على رؤوس الاعمدة يتراوح علوها بين عشرة وستين وقدما . وسنرى ماهـي الدوافع التي أدت بهم الى ذلك اثناء دراستنا لكبير العموديين سمعان الذى بنيت القلعة حول عموده .

آ ـ القديس سمعان :

لابد لنا قبل كل شيء ان نتساءل لماذا اطلق على سمعان لقب القديس ؟
يعرّف قاموس (ويستر) الانكليزى كلمة قديس بمايلي : „ شخص يعمل البر أو نذر نفسه لله ، أو شخص يتميز بالتقوى والنسك أو بالطهارة وحسن السلوك وخاصة من تجدد بالروح وتبرر أو هو في طريق التبرير „ .

نشأته :

ولد سمعان سنة ٣٩٠ م في قرية صيصان الواقعة بجوار نيكوبوليس وهي اصلاحيـة اليوم في شمال سوريا . (لم يعين موقع صيصان حتى اليوم ويجب ان نفرق بينها وبين صيصان داخل كيليكيا) . اما عائلته فكانت من طبقة فقيرة . وكان في ابتداء نشأته يرعى غنم أبيه فأثرت حياة العزلة هذه في نفسه وأوجدت لديه ميلا للتأمل الروحي في احضان الطبيعة . وترعرع قويا جميل الطلعة ولكنه كان قصيرا . وفي سنه هذا كان يجمع نباتا بريا لذيـــذ الرائحة ويحرقه على عادة التقدمات دون ان يعلم لمن يحرق ذلك . وقد يكون في عمله هذا بقايا عادة وثنية قديمة اتبعها دون ان يشعر بها . لأنه وان كان مسيحيا متعمدا الّا انه لم يكن على شيء من الثقافة الدينية .

تنسكه :

تجمع كتب التراجم ان سمعان ذهب مع والديه مرة الى الكنيسة وهناك تأثر بكلام الانجيل الذى يثني على اتقياء القلب . فسأل احد الشيوخ : كيف السبيل الى هـــذه السعادة ؟ فتحرى له وجوه النصح وأشار عليه بالصوم والصلاة والتواضع . ثم أضـاف : „ ان الزهد هو أسمى فلسفة في الحياة „ . ويقال ان رؤى كانت تظهر له تهيب به ان ينبذ هذا العالم ويتبع الله . وهكذا كرّس نفسه لحياة الرهبنة .

كان لايزال صغير السن حين التحق بدير يوزوبونا Eusobona ، في مقاطعة انطاكية . وقد وهبه ماورثه عن والديه واحدى عماته . وكان على رأس رهبان هذا الدير الذين يبلغون الثمانين او المائة وعشرين ، راهب اسمه هليودوروس التحق بالدير وهـو طفل ولم يغادره حتى مجيء سمعان الذى بقي فيه نحوا من عشر سنوات . وعرف بين رفاقه

بشدة نسكه وتطرفه . ففي الوقت الذي يصوم فيه رفاقه اياما معينة يصوم هو كل يوم من ايام الاسبوع . وكلما ازداد تطرفا كلما ازدادت نقمة زملائه الذين وجدوه لايتقيد بقوانين الدير مما اضطرهم الى الطلب من رئيسهم ان يطرده . وتم لهم ما ارادوا اذ غادر الدير الى دير ماريس في قرية نيشه . وفي اعالي تل نيشه وهبه شخص يسمى دانيال قطعة ارض أقام عليها صومعته في مكان يبعد عن انطاكية نحوا من اربعين ميلا . وكان ان انتشرت الاخبار عن طريقة حياته فتبعه بعض الاتباع وألفوا جمعية تدعى ماندرا[١] . ولانعلم عنه بين عامي ٤١٣–٤٢٣ سوى انه امضى وقته في صومعة منعزلة .

فكرة الاعمدة :

ابتدأ في عام ٤٢٣ باقامة عمود صغير بلغ علوه ستة اقدام وأقام عليه ثم تنقل على اعمدة مختلفة العلو مدة سبع سنوات واخيرا استقر في عام ٤٣٠ على عمود كبير بلغ علوه ستون قدما بقي عليه مدة ثلاثين سنة . والعمود مولف من ثلاث قطع تمثل الثالوث المقدس . هذا ما أجمع عليه المؤرخون جميعهم ولكن لماذا اختار سمعان رؤوس الاعمدة مكانا لاقامته ؟ يقول نولدكه[٢] : „ان كبرياء وترفع سمعان يتجليان في اختياره عمودا ليكون مكان اقامته„ . وتقول الكاتبة غوردون[٣] : „انه صنع ذلك ليكون قريبا من السماء „ . ويقول روبن فدن[٤] : „انه صنع ذلك ليهرب من الجموع التي جذبتها قداسته اليه في صومعته المنفردة في تل نيشه „ . ويقول الشيخ كامل الغزي[٥] : „وقد اشتهر سمعان برقي المرضى فأتى الى هذا الجبل واختار منه بقعة تبعد عن مدينة انطاكية نحوا من اربعين ميلا فبنى فيها عمودا يعلو عن الارض ١٢ (هنداسة) وعرض سطحه ثلاثة اقدام وله دائر قليل الارتفاع ثم صعد على ذلك العمود واشتغل يجاهد نفسه بالتعبد حتى ادركته الوفاة سنة ٤٦١ فلقب بالعمودي „ . ويقول دفلن[٦] : „يقال انه فعل ذلك ليكون بمنأى عن الناس وملاحظاتهم ولكن اذا صح هذا الامر فيكون بعمله هذا قد اتبع الطريقة الوحيدة لجذب انتباه الناس وتعليقاتهم „ . وهنالك من يقول ان سمعان كان ضعيف البنية مما يجعله في حالته تلك فريسة لمرض Hyaemes الذي يوجد حول الجبل . ولهذا فقد أمره الاسقف ان يبحث عن مكان يأمن فيه شر المرض ويومن له في الوقت نفسه شروط العزلة . ووجد سمعان ضالته على هذا العمود .

اما كيف بناه فهو ان سمعان قد اضحى شخصا معروفا بتقاه ونسكه لدى الجماهير فكانت تهرع اليه ولاتتوانى عن تقديم أية خدمة له . اذ كلما ازداد تجنبه للناس كلما ازداد تعلقهم به والتفافهم حوله . ولابد ان هؤلاء هم الذين لبوا رغبته في بناء العمود . ولكن هل كان هو اول العموديين ؟

---

(١) Dictionary of Christian Biography, London, 1887 Vol.IV under article: Simeon stylites

(٢) T.Nöldeke, Sketches from Eastern History, London, 1892, P:214

(٣) H.C.Gordon, Syria, as it is. London, 1939. P: 122

(٤) Op.Cit., p: 134

(٥) الشيخ كامل الغزي — نهر الذهب في تاريخ حلب — المطبعة المارونية ، حلب ١٩٢٦ ص ٤٦٦

(٦) Rev.Devlin, Life of St.Simeon, in Aleppo and its Environs. Aleppo, 1944

ليست عادة استعمال الاعمدة بالامر الغريب والجديد اذ سبق ان حدثنالوكيانوس في كتاب „ابحاث عن الآلهة السورية „ الذى ينسب اليه ، عن عادة مماثلة كانت تجرى في عهد الوثنية في معبد الآلهة آتارغاتيس في هيرابوليس (منبج) ، اذ كان يوجد تحت اروقة المعبد اعمدة مرتفعة حسب تقاليد ديونيسيوس ويبلغ علو الواحد منها حوالي ٥٢ مترا.وفي كل سنة يصعد رجل الى قمة العمود ويبقى هناك مدة سبعة ايام . اما السبب الذى يعطيه لوكيانوس تبريرا لهذه العادة الوثنية فهو اقتناع الجموع بان هذا الرجل الذى يجلس على العمود يتحدث الى الآلهة ويطلب منها ان تزدهر البلاد معتقدا بان وضعه المرتفع هذا يمكنه من بث الصلاة عن قرب . اما الطريقة التي اتبعها الرجل للصعود على هذا العمود فهي هذه : يحيط جسمه بسلسلة يرسلها حول العمود ايضا ثم يستند بعد ذلك على قطع خشبية متصلة بالعمود وهي واسعة بشكل يكفي لاستيعاب قدميه . ثم يقفز الى الاعلى مستندا على القطع الخشبية وممسكا بالسلسلة من طرفيها كأنها أعنة جواد . يرميها الى الاعلى فتشده الى العمود كلما ارتفع وهكذا حتى يصل القمة . والعملية اشبه بتسلق اشجار النخيل .

عندما يبلغ هذا الرجل القمة يكون قد اصعد معه سلسلة اخرى طويلة يشدها الى وسطه ويدلي طرفها الى الاسفل ويحصل بواسطتها على مايحتاجه من لوازم ويضع جميع هذه اللوازم في مكان على السطح يحيطه بحاجز أشبه بأوكار الطيور . وهناك يجلس ويمضي سبعة ايام كل سنة .

نتساءل هنا فيما اذا كانت هنالك من علاقة محدودة وقوية بين هذا الطقس الوثني المستعمل في معبد الآلهة السورية في هيرابوليس وبين فكرة عمود سمعان ؟ .

يقول توتان الذى اورد هذا(١) : „ليس هنالك من شك بانه توجد اختلافات لايمكن التغاضي عنها بين طرفي المقارنة . فالعمود ى شخص ناسك يمضي حياته على العمود الذى انشأه بنفسه أو الذى انشيء له . بينما عبادة الآلهة السورية مادية كلفة باللذات بدليل الشكل المعطى للعمود . اما الرجل الذى يصعد كل سنة الى قمة العمود فهو يمارس احد ى الشعائر الدينية لمدة محدودة تعينها قوانين المعبد ويتقاضى مالا لقاء عمله . وهذه العادة بانتقالها من الديانة الوثنية السورية الى المسيحية الصوفية قد تعرضت الى تغيرات في الجوهر والشكل فتطهرت وتسامت . فقد صعد الكاهن الوثني في هيرابوليس الى قمة العمود ليكون اكثر قربا من الآلهة . وللغاية ذاتها اقام العمود ى فوق عموده „ . وقد كتب صاحب „ابحاث عن الآلهة السورية „ يقول : „ان الجماهير على يقين من ان هذا الرجل ، على هذا المكان المرتفع ، يتحدث الى الآلهة ويطلب منها ازدهار البلاد „ . وقد كتب صاحب احد ى تراجم العموديين يقول(٢) : „تخيل القديس تمضية حياته على قمة عمود ليكون اقرب الى السماء ليس فقط في الروح والفكر بل في الجسد ايضا „ .

---

(١) J. Toutain, La legende chretiénne de St.Simeon stylites et ses origines paiennes. Revue de l'histoire des religions, T.LXV, Paris, 1912 PP: 171-177

(٢) Ibid. P: 176

« وهكذا تظهر لنا فكرة واحدة في الحادثتين وهي الاقتراب اكثر من الله ومحاولة بث الصلاة عن قرب » . هذا مايعتقد به توتان في مقاله من انه توجد علاقة بين العادتين : الوثنية والمسيحية ،ولكن هل هذا صحيح ؟

يقول نولدكه (١) : « من المؤكد ان هذه العادة القديمة قد اندثرت منذ زمن بعيد ولايعقل أن سمعان المنطوى على نفسه والمنعزل عن الناس قد سمع بها حتى يقلدها » . ويؤيده تيودورت المؤرخ المعاصر اذ ينظر في هذه الحياة العمودية بانها بدعة جديدة في عالم النسك والرهبنة . والمرجح ان سمعان كان يجهل كل شيء عن هذه العادة بل ان جميع المثقفين في عصره كانوا ينظرون الى فكرة الاعمدة على انها فكرة جديدة . ومع اننا لانستطيع ان نجد أى ترابط تاريخي بينها فان الالماني بورخاردت Burchardt يستنتج شيئا واحدا وهو الاقتراب من الله .

لابد اننا نعجب كيف عاش سمعان تلك الاعوام الطويلة على رأس العمود يخاطب الجماهير ويصلي لهم ؟

ان اتخاذ سمعان العمود مسكنا له هو خطوة اخرى تضاف الى تنسكه وتطرفه وان كان الهدف من ذلك ان يكون بمنأى عن العالم وشروره . وتساءل كثيرون عن معنى ذلك وهزء آخرون من هذه الحماقة . اما مؤيدوه فيقولون انه صنع ذلك لان الله أمره ان يفعله . واذا عبّرنا نحن اليوم عن ذلك نقول : انه قد قرر ان يقوم بذلك فانقضى الامر . ومهما يكن فان انفراده بعادته تلك طبع تاريخه بطابع جديد » . ومن يدرى فلو بقي يعيش بمستوى الارض لما اصبحت له هذه الشهرة العارمة ،كما يقول نولدكه (٢) .

جاء في قاموس التراجم المسيحية (٣) : « ان هنالك فكرة خاطئة يتناقلها الكثيرون عن العموديين وهي انهم لايستندون على شيء في مقامهم العالي ويوازنون انفسهم دائما خوف خطر السقوط معتمدين على قول ايفاغريوس ان قطر عمود سمعان في الاعلى كان ثلاثة اقدام . الّا ان اسيمان Asseman قد وصف العمود في كتابه عن حياة القديس بان له حاجز (درابزون) وذلك لكي يمنعه من السقوط وليكون له مأوى وليساعده على كتابة الرسائل التي كان يبعث بها الى الاباطرة والاساقفة والمجامع حول المشاكل الدينية القديمة » . ويؤكد بتلر (٤) : « ان مساحة قمة العمود كانت ستة اقدام مربعة وهذا يجعلها تتسع لاكثر من شخص واحد » .

ونعلم من ترجمته ان طعامه المتواضع كان يرسل اليه عن طريق سلة يدليها الى الاسفل . كما ان احد الرهبان كان يصعد على السلم المؤدى الى القمة ليقدم للعمودى خبز التقدمة . وقضائه تلك الاعوام الطويلة على رأس العمود يدل على ان بنيته كانت قوية ورئتاه قويتان تمكنانه من الخطابة في هذه الجموع الغفيرة .

---

(١) Op.Cit., P: 214

(٢) Ibid. P: 215

(٣) Dictionary of Christian Biography, under: Simeon stylite

(٤) H.C.Butler, Early churches in Syria, Princeton, 1929. P:100

شهرته :

كان سمعان يمضي وقته في مكانه المرتفع يعظ الجماهير المحتشدة مرتين في اليوم. وما بلغ القرن الخامس اواسطه حتى علت شهرته وتكاثرت الاقوال عن مآثره فكانت الطرق المؤدية الى عموده عبر التلال القريبة تغص بوفود الحجاج ويقول روبن فدن[1] : „ان بحرا زاخرا من الوجوه المخلصة تحدق يوميا في هذا القديس الغريب „ . وبلغ من أمره ان شاعت شهرته حتى لدى الاباطرة فتروى سيرته السريانية[2] ان وزير الامبراطور تيودوسيوس الثاني ويدعى اسكلبيودوتوس نشر مرسوما يعيد الى اليهود الكنيس الذى انتزعه المسيحيون منهم بالقوة . فتأثر المسيحيون من فكرة اعادة الابنية ، التي اخذوا يقيمون فيها طقوسهم ، الى اليهود الذين صلبوا المسيح . فكتب عدة اساقفة رسالة بهذا المعنى الى سمعان يرجون تدخله في الامر. فوجه هذا رسالة عتاب الى الامبراطور جعلته يعدل عن أمره ويمزق المرسوم القاضي باعادة الكنيس الى اليهود ويعزل الوزير صديق الوثنيين واليهود . ويعلق نولدكه على هذه القصة بقوله „انها قد لاتكون حدثت تماما وفق هذا الترتيب اذ انه لايزال يوجد نص المرسوم الامبراطوري الى الوزير الذى يحرم أخذ المعابد من اليهود مجددا (أى دون ان يجعل له مفعولا رجعيا) اما المعابد التي أخذها المسيحيون في السابق فيجب ان يعوّض على اليهود بشأنها „ . ويشك نولدكه في ان يكون لسمعان تأثير كبير في اصدار هذا المرسوم اذ ان المرسوم صدر عام ٤٢٣ في الوقت الذى لم يشتهر فيه بعد . واذا صح ان الكتاب غير وارد فهو يدل على الأقل على اهمية التأثير والشهرة التي أخذ يتمتع بها بعد ذلك بين المؤرخين والمترجمين .

ويوجه سمعان في آخر سني حياته ، بين ٤٥٧ — ٤٥٩ ، بعد ان علت شهرته ، رسالة الى الامبراطور ليون يوافق فيها الى ما انتهى اليه مجمع خلقدونية المنعقد عام ٤٥١ م من ان في المسيح طبيعتين . وكتب في الوقت ذاته وبنفس المعنى الى باسيليوس بطريرك انطاكية . ولابد هنا ان نتساءل فيما اذا كان القديس يفهم حقا مايدور من القضايا في مجمع خلقدونية حتى أرسل رأيه فيها ؟ ان اصحاب الطبيعة الواحدة ، وهم الاكثرية في سورية ، الذين عارضوا مجمع خلقدونية تجاهلوا أو جهلوا عمل سمعان هذا واعتبروه رغم ذلك من قديسيهم ، تماما كما فعل النساطرة الذين يرفضون القول بان مريم هي أم الله والذين اعتبرهم مجمع افسس عام ٤٣١ م تبعا لذلك هراطقة رغم ان سمعان قد ذم معتقداتهم وكفرها في رسالة الى بطريرك انطاكية .

اما عن كيفية كتابة هذه الرسائل فيقال ان سمعان كان يملي ذلك على احد تلامذته الذين يقفون على السلم المؤدى الى القمة . ولانعلم شيئا عن معرفة سمعان القراءة والكتابة أو عدمها .

---

(١) Op.Cit., P. 135

(٢) كاتب هذه السيرة مجهول : انظر — المقتطف — الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر بعد المئة — اول يوليو ١٩٤٩ . ص : ١٠٦، ١٠٨

وبلغ من شهرته ان امبراطور القسطنطينية وملك الفرس الوثني كانا يأتيان اليه لالتماس نصائحه . وقد تراسل مع قديسة باريس جانفييف وكانت المراسلات بينهما تتم على ايدى التجار الذين يجوبون هذه المناطق . وتقول الكاتبة غوردون (١) : «ان وفود غاليا والهند كانت تفد اليه لما سمعت عنه» . ويقول الخورى رباط (٢) : «أتى المتبرّكون به من بلاد العرب والفرس وارمينية وايطاليا وغاليا واسبانيا وحتى من بريطانيا العظمى وجاب بريد شهرته مدينة رومية فأخذ العمال فيها يزينون بصورته حوانيتهم» . وقد وجد رونزفال صورة للقديس على قطعة حجرية في جهات حلب نقلها الى متحف اللوفر . وهي مأخوذة عن صورة كنيسة قلب اللوزة . وترينا العمود مرتكزا على قاعدة مدرجة وله ثقب على شكل نافذة . وتوجد قطعة مستطيلة عند اسفل التاج تنتهي عند رأس العمودى . ويرى السلم مستندا الى العمود .

ومما يذكر ان الكنيسة الرومانية تعيّد لسمعان في ٥ كانون الثاني من كل عام والكنيسة اليونانية في اول ايلول من كل عام .

وقد ظهرت عدة تراجم تعالج بدقة وبوثائق مكتوبة حياة القديس ولعل من اهمها : حياة القديس سمعان العمودى التي كتبها بدجان Bedjan في مجموعة Acto Martyrum et Sanctorum وقد ترجمها مؤخرا الى الانكليزية القس فريدريك لنت F.Lent (٣).

عجائبه :

لطالما ترددت في كتب المترجمين والمؤرخين القدماء اخبار عن معجزات كان يقوم بها القديس وهي ان دلت على شيء فتدل على شخصية كاتبها وعلى القرّاء الذين توجه لهم تلك الكتابات . وينتقل نولدكه (٤) الى معالجة العجائب التي ترد عن سمعان ويرويها بروح الناقد المؤرخ ويخرج بها من جوها السحرى الغريب الى الحقيقة والواقع . يروى «ان سمعان تنبأ في احدى المناسبات بان سربا من الجراد سيطغي على المزروعات كعقاب لخطايا السكان . ولكن لن يكون ضرره كبيرا بسبب العناية الالهية التي ستلطف منه . وقد حدث ذلك فعلا كما يروى تيودورت المؤرخ» . ويعلق نولدكه على ذلك «بان القصة قد تكون حقيقية فالجراد يكثر احيانا في هذه المناطق الشمالية من سوريا ولذلك فهو يستعمل من قبل رجال الدين كتهديد للبشر على خطاياهم» .

ولعل من اهم مايروى الحادث التالي : «تهدد احد المراكب بالغرق اثناء زوبعة بحرية وتراءى للناس على اعلى السارية رجل اسود فاعتقدوا انه طالع شوم وان المركب سيغرق . ولكن حدث ان كان رجل من منطقة ديار بكر على ظهر المركب يحمل بعض

---

(١) Op.Cit., P: 122

(٢) الخورى جبرائيل رباط — اسألوا الآثار عن مجد الجدود — مجلة العاديات السورية حلب ١٩٣١ . ص : ٧٦—٨٨

cf .Rev.Christopher Devlin-Aleppo and its Environs,Aleppo 1944

(٣) Journal of the American Oriental Society,Vol.35, 1915 P:103

(٤) Op.Cit., pp: 220-221

الغبار المقدس الذي كان الناس يجمعونه من حول مكان القديس للتبرك به . فما كان منه الا ان ذرى الغبار على ظهر المركب ونادى سمعان بأعلى صوته ان « خلصنا من هذا المأزق » . يقال ان القديس ظهر ورمى الرجل الاسود بالسوط . وهنا تذمر الشر لان سمعان لم يكتف بمطاردته على اليابسة بل تبعه الى البحر . وكان ان هدأ البحر ونجى المركب من الغرق » . يقول نولدكه (١) : « ان هذه احدى اساطير كثيرة حاكها خيال الناس حول سمعان وسجلها بعض المؤرخين الاسطوريين على انها حقائق » ، ويضيف « ان ماينا قض الرواية السابقة هو انه كيف ترك سمعان عموده وأتى الى البحر في الوقت الذي لم يغادر فيه عموده مطلقا » . ويعلل هؤلاء ان سمعان اثناء تلك الحادثة وقف واجما لبعض الوقت امام جمع غفير من الناس وبعد ان استأنف الكلام سئل عن سر توقفه فأجاب بانه كان في تلك اللحظة ينجي مركبا عليه ثلاثماية نفس . أي اننا نستخلص من الاسطورة ان جسده كان على العمود وروحه غائبة .

وفاته :

بعد قضاء ستة وخمسين سنة في حياة النسك التام (قضى سبعة وثلاثون منها على رؤوس الاعمدة) توفي سمعان عن عمر يناهز السبعين وذلك يوم الاربعاء الثاني من ايلول عام ٤٥٩ . وأحيط خبر موته بكتمان شديد خوفا من اختطاف جثمانه بغية التبرك به . وفي ٢١ ايلول انطلق موكب الجثمان في الطريق الى انطاكية ووصلها في ٢٥ ايلول وسار في الموكب كبار الاساقفة والرهبان يصحبهم قائد مقاطعة الشرق الروماني ، ارداابوريوس ، ابن القائد اسبار Aspar المعروف ، على رأس عدة آلاف من الجند القوطيين الذين كانوا على دين قائدهم وهو الآريانية . وحمل الاساقفة الجثمان مدة ساعة على أكفهم ثم نقل الى عربة . ودفن في كنيسة قسطنطين في انطاكية . وكان بود الامبراطور ليون ان ينقل الجثمان الى القسطنطينية ولكنه امتنع عن ذلك تحت الحاح الانطاكيين الذين منوا بزلزالين (ايلول ٤٥٧ ، وحزيران ٤٥٩) سببا ذعرا في انطاكية . ووجد الانطاكيون آلان في جثمان القديس درعا يقيهم شر المصائب ولكن أملهم خاب . ويروى المؤرخ الكنسي ايفاغريوس انه شاهد جثمان القديس حين عرضه قائد الشرق فيلبيكوس ، صهر الامبراطور موريس ، وذلك حوالي العام ٥٨٨ . وكان الجثمان في حالة جيدة .

الا ان هنالك رواية نرويها بتحفظ اذ لم ترد سوى في كتاب ماترن Mattern نقلا عن توفينوت (٢) Thévenot يقول : « ان هنالك رواية تنص على ان رفات سمعان قد نقلت من انطاكية الى دمشق وهي موجودة في قبر قرب باب توما في مكان يسمى تربة الشيخ ارسلان حيث وجد سابقا معبد للآلهة سيرابيس » . ويتساءل واتزينجر فيما اذا كان هذا يحوي بقايا سمعان أم بقايا عمود آخر ؟

---

(١) Ibid. P: 222

(٢) Thévenot, Relation d'un voyage fait au Levant en 1565, P: 34
cf. Watzinger et Wulzinger. Damascus, I, Die ant. Stadt, P: 101

قد لايكون أمر وجود رفات سمعان في دمشق امرا صحيحا اذ ربما تخص أحد العموديين الآخرين وقد التبس الامر على توفينوت . ودليلنا على هذا مايرويه جان لاسوس(١) من انه „يوجد عموديون كثر في سوريا منهم (جان ليتربا) في تل طريب في سهل حلب على طريق انطاكية وهو كاتب وعمودي وهنالك آخر في دمشق وثالث في جبيل „ .

ب - العموديون الآخرون :

حذا كثير من النساك حذو سمعان العمودي في الاراضي السورية ولم يقتصر الأمر على الرهبان بل تعداه الى الكتبة ويذكر منهم الكاتب يشوع العمودي ، ولعل اهم عمودي بعد سمعان هو القديس سمعان الاصغر المتوفي عام ٥٩٢ والذي شاهد في آخر حياته قيام كنيسة حول عموده في جبل الدهشة Mt. Admirable قرب انطاكية . وقام أحد تلامذة سمعان الكبار ، المدعو دانيال العمودي ، بقضاء عشرين سنة على قمة عمود اقامه على بعد اربعة اميال من القسطنطينية . ويذكر جان لاسوس(٢) : „بان النصوص تعرفنا الى عدة من هؤلاء منهم : (جان ليتربا) في تل طريب الواقعة في سهل حلب على الطريق الى انطاكية ، وهو عمودي وكاتب في الوقت ذاته ونعرف آخرا في دمشق وثالثا في جبيل . وهنالك لوائح سريانية محفوظة في المتحف البريطاني تعطينا اسماء اربعة قرى وجد فيها عموديون وهي : كفر درن - توغاد - ازراب = وحمالا . وقد عرّف الكاتبان (ماترن) و (موتارد) قرية كفر درن بانها كفر دريات في الوادي شمال قرقية Karkaya حيث وجد عمود احد العموديين „ .

ولم تقتصر عادة الاعمدة على الشرق بل تعدته الى الغرب اذ يذكر ان الشاب المتحمس فولفيلا قد اقام ، حوالي منتصف القرن السادس ، عمودا مشابها في ضواحي مدينة تريف Trèves . ولكن الاساقفة أمروه بالنزول بحجة انه ليس بامكانه ان يقلد القديس الكبير ويقال ان رئيس بيعته هدم العمود بعد ذلك . وفي هذا دلالة على ان الغربيين لم يتقبلوا العادات الشرقية المتطرفة . وبلغ من الاهتمام والتقليد لهذه العادة التنسكية المتطرفة التي تفرغ قد استها فرضا ان دامت في الشرق لمدة طويلة وبقي خلفاء القديس سمعان في سوريا حتى القرن العاشر وفي جيورجيا حتى مطلع القرن التاسع عشر . ولعل خير من كتب عنهم الكاتب الفرنسي دلاهاي(٣) Delehaye .

---

(١) J.Lassus,Sanctuaire chretiens de Syrie,Paris 1947, P: 277

(٢) Ibid. P: 277

(٣) Delehaye, Les Saintes Stylites

قلعـــة ســـــمعان

لمحة عامة عن آثار جبل سمعان : .

قلعة سمعان وعلى حد تعبير كامل الغزى[١] : „كنيسة أو سراى سمعان هي بناء ضخم ذو اساطين عظيمة على كثير من حجارته خطوط رومانية يقصده السواح „ . ويجب ان نميز بين القلعة والمدينة . اذ ان القلعة هي بمثابة الاكروبول والمدينة تقوم في الاسفل لتأوى وفود الزائرين وسنتكلم عنها بعد ان ننهي الكلام عن القلعة .

تبدو مناطق التلال في شمال سوريا من اكثر المناطق التي درستها بعثة برنستون اهمية واهتماما . ورغم انها ذات مساحة صغيرة تقدر بـ ٧٠ ميل مربع فهي تحتوى على اكبر عدد من الآوابد البارزة . ولم تجر دراسات دقيقة لهذه الابنية الهندسية الهامة باستثناء قلعة سمعان الذى يعتبر „ دوفوغه „ اول من قام بدراستها . وتلته في ربيع سنة ١٩٠٥ بعثة جامعة برنستون . ثم جاء كرنكر Krencker الالماني والف عنها كتابا بناء على تنقيباته ومشاهداته سنة ١٩٣٩ .

جبل سمعان عبارة عن هضبة مرتفعة يبلغ عرضها سبعة اميال وطولها عشرة اميال وتنتهي شمالا بواد يخترقه طريق اسكندرون – حلب القديم ، وتتصل من الجهة الشرقية بارض مستوية نسبيا تمتد حتى غربي حلب . اما في الجنوب فليس لها حدود واضحة اذ تتصل مع المناطق التلالية المرتفعة . وعلى وجه العموم تتصل هذه الهضبة الكلسية بجبل حلاقة Mt. Halakah وجبل باريشا وجبل العلا ، مع انها اقل انهداما في الجبليـــــن الآخرين . وفي الهضبة قمتان أو ثلاث مخروطيات الشكل ترتفع فوق مستوى الارض المحيطة بهما ويخترقها في الشمال واديان عميقان باتجاه شرقي – غربي . وتنحدر باتجاه نهـر عفرين وسهول العمق . ومجمل القول ان هذه الهضبة خفيفة الميل والانحدار . وهنالك دلائل تشير انها كانت منطقة زراعية خصبة في قديم الزمن بدليل معاصر الزيت التي اكتشفت فيها . وبالرغم من انبساط سطحها وانحداره فان الطبقة الترابية التي كانت تغطي الصخور الكلسية في القديم قد زال اكثرها بفعل الامطار والرياح والائتكال وتجمعت في وديان ليس لها منافذ . ولهذا السبب تبدو المنطقة جرداء غالبا . وقد نجد بعض العائلات تقطن في المدن القديمة المتهدمة ويومها في بعض فصول السنة جماعات من التركمان تخيم فيهـــا أو تلتجيء الى ابنيتها المتهدمة .

اما الآثار الباقية فهي كثيرة وبحالة حسنة وتمثل لنا حضارة رفيعة . وهذه الابنية تمثل فترة كبيرة من فن الهندسة تقدر بخمسة قرون أى منذ القرن الاول الميلادى حتى السابع . وهي بهذا تشتمل على فترة هامة من تاريخ سوريا الشمالية في النحت والهندسة . وهنالك كثرة في الآوابد المؤرخة وكثرة ايضا في الآوابد المجهولة التأريخ والتي نستطيع معرفـــة تاريخها بمقارنتها مع الابنية التي تحمل نقوشا تدل على زمنها . وقد نصادف بعض الصعوبات في معرفة تاريخ الابنية التي تعود الى القرن الثاني الا ان الابنية التي تلي في القـرون الاخرى معروفة تماما وتفيدنا بمعرفة تاريخ الهندسة السورية .

---

(١) المصدر السابق . ص : ٤٧٦

لانعثر على بقايا هندسية دينية وثنية أى معابد الّا في موضعين : في كفر نابو ، وفي قلعة كالوتا • ففي كفر نابو نجد بقايا معبد وثني تدل على حجمه الكبير وهي مستعملة في بناء جدران احدى الكنائس • وفي قلعة كالوتا نجد اقساما تامة لجدران معبدين صغيرين قد ادخلت بتمامها في بناء احدى الكنائس • وهذه الآثار الوثنية المستعملة في الابنية المسيحية هي الوحيدة التي نصادفها في شمال سوريا • ونستنتج مما سبق ومن بقايا مبعثرة في اكثر من عشرين موقعا على طول وعرض سوريا الشمالية ان هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان وذات حضارة رفيعة في القرنين الاول والثاني ميلادى •

ان الابنية الدينية في جبل سمعان ذات اهمية كبرى في تاريخ الفن المسيحي وذلك ليس لانها تضم اعظم آبدة مسيحية وهي كنيسة القديس سمعان قبل بناء كنيسة آياصوفيا في القسطنطينية ولكن لاسباب مختلفة نجملها في مايلي :

١ — لاننا نجد في عداد هذه الابنية في مكان يسمى فيفارتين Fifartin اقدم كنيسة مسيحية ذات شكل بازليكي (مستطيل) ولم تحدث فيها تغيرات أو ترميمات منذ انشائها • وترجع هذه الكنيسة الى ٣٧٢ م •

٢ — لان تلك القائمة من الكنائس والمعابد تمثل فترة تاريخية متصلة تمتد من زمن ، اقدم من زمن كنيسة فيفارتين وحتى عام ٦٠٣ م •

٣ — لان هذه الكنائس ، الكبيرة منها والصغيرة ، محفوظة بحالة جيدة على وجه العموم بالاضافة الى مزية تتصف بها جميعها وهي انها لم ترمم أو يعاد بناؤها • وبهذه المناسبة نشير الى ان كثيرا من المظاهر الداخلية الخاصة لم يصبها أى تغيير ايضا •

ان اكثر من نصف الآوابد الخمس والعشرون في جبل سمعان كانت مدنا اكبر من المتوسط العام لمدن التلال في سوريا الشمالية • فبراد وبرج حيدر وكالوتا وشيخ سليمان وكفر نابو وخرب شمس وباشمرا وفيفارتين جميعها تحتوى على آثار تعود الى تلك الفترة • واذا قسمت مساحة جبل سمعان على مختلف هذه المدن لأصاب الواحدة اقل من ثلاثة اميال مربعة • مما يرى اكتظاظ المكان بالسكان •

ويظهر لنا من بقايا المعاصر الموجودة ان صناعة الزيوت كانت رائجة وكافية لسد حاجات وترف السكان القدماء بالخمور ، هذا اذا علمنا ان اسواق مدينة انطاكية لم تكن بعيدة عنهم • اما التجارة بين ساكني هذه المدن والاقوام المجاورة او البعيدة فكانت تتم بواسطة الطرق التي تمتد الى الشرق والجنوب الشرقي والجنوب والغرب ومن المحتمل تجاه الشمال • الّا ان البراهين والوثائق تشير الى ان التجارة مع الشرق كانت اوثق منها مع بقية الاطراف وخاصة في القرون التالية •

الاصالة الهندسية في البناء :

يعلق بتلر[١] على التأثيرات والاتجاهات الهندسية في هذه الامكنة „ بانها شرقية بحتة وليس فيها تأثيرات هلنستية من انطاكية أو تأثيرات بيزنطية من مزيج يوناني وروماني •

(١) H.C. Butler, Ancient Architecture in Syria, Leyden, 1920 Div. II, Sect.B. Part 6 . P: 264

وتزايد استعمال السريانية في النقوش كلما تقدمنا شرقا في شمال سوريا يشير الى الصلات الوثيقة بين هذه المنطقة وبين مركز الرها السريانية " .

ويظهر لدى روبن فدن في هذه الابنية [1] :

١ - الاصالة السورية في الفن .

٢ - حاجات العبادة المسيحية .

وقد ساعد في البناء وجود كميات من الاحجار الكلسية الجيدة مما لايجعل حاجة لاستعمال القرميد . (في شرقي الرصافة يحل الجص مكان الحجر الكلسي . وتوجد كنيستان فقط في سوريا مصنوعتان من القرميد وهما : قصر ابن وردان والاندرين).

لايوجد هنالك سوى اختلاف ضئيل في الاشكال العامة للكنائس المستطيلة التي صممها المهندسون في شمال سوريا . فهي تتصف بوجه عام بصحن مركزي طويل تفصله عن الجناحين الجانبيين صفوف من الاعمدة . وتستند على رؤوس هذه الاعمدة مباشرة اقواس مستديرة ذات سعة كبيرة ، دون ان يفصل بينها أية زخارف . اما الاعمدة فغالبيتها من قطعة واحدة وتظهر في التيجان نماذج مأخوذة عن الفن الكلاسيكي بالرغم من ان النموذج الكورنثي هو السائد . وتكون النوافذ ، في الاعلى أو في الجدران الجانبية ، اما مستطيلة أو ذات شكل نصف دائري من الاعلى . وفي هذا الشكل الاخير قلما تكون مقوسة تماما . ويكتفى بان تكون العتبة العليا Lintel التي تعلو فتحة النافذة بشكل نصف دائري ويعرف هذا الشكل بالعتبة المقوسة . وتظهر الرفارف Corbels فوق نوافذ القبة لتحمل السقف (عندما لم يكن السقف في كنيسة سمعان وكنائس اخرى متأخرة يستند على صف ثان من الاعمدة الصغيرة التي تنتصب بين نوافذ القبة).

اما السقف فكان من الخشب . ويصف ايفاغريوس ، المؤرخ الكنسي السوري ، سقف كنيسة سورية في القرن الرابع " بانه مصنوع من ارز لبنان " . وقد زالت هذه السقوف الخشبية . ويوجد في الاطراف الشرقية لهذه الكنائس مذابح مغطاة بنصف قبة . ولاترى هذه الحنية في اكثر الاحيان من خارج الكنيسة لان جدارا كثيفا يحجبها . وتتصل هذه الحنية بغرفتين ذات اشكال مستطيلة تقريبا . يستثنى من ذلك الحنيات الثلاثية في كنيسة سمعان وفي الرصافة . تستعمل احدى هذه الغرف لوضع الملابس والاشياء المقدسة والاخرى للقربان والتقدمة . وهنالك حاجز خشبي يفصل بين المذبح والصحن وحاجز آخر ، في مكان ما في الكنيسة ، يفصل بين المصلين من الجنسين . وهنالك ستائر خشبية على النوافذ لمنع دخول اشعة الشمس ولم تصل لنا أية قطعة خشبية من هذه .

اما عن الزخارف فتعتمد هذه الكنائس بدرجة رئيسية على النقش الحجري الذي برع فيه الصناع الفحليون والذي لايزال مرئيا في الافاريز المتناسقة وفي رؤوس التيجان المنحوتة . وتظهر جميع هذه الخصائص في قلعة سمعان التي يرجح انها بنيت في النصف الاخير من القرن الخامس الميلادي . ويجب ان نذكر دائما ان تقدم فن الزخرفة لايضعف بأي شكل

---

(١) Op.Cit., P: 139

الاهتمام بالبناء . فغاية الزخارف التأكيد على بعض الخطوط الهامة أو الربط بين بعض المظاهر البنائية البارزة . وقد بقي البنّائون في شمال سوريا معماريين بالرغم من انهم اصبحوا فنانين .

بنى السوريون بالاضافة الى الكنائس المستطيلة (البازيليكا) نوعا بسيطا مستطيلا من المعابد بدون أية اعمدة أو اجنحة . هذا ويلحظ بشكل بارز ندرة الكنائس ذات القبب المركزية في سوريا الشمالية (فن بيزنطي) وهذه الندرة تدل على الاختلاف في المفاهيم الهندسية السائدة في بيزنطية وانطاكية ، ذلك الاختلاف الذى لم تكن انطاكية على استعداد للحد منه مدللة بذلك على محافظتها على استقلالها الكنسي . وكما سبق ورأينا فقد تجنبت سوريا الشمالية استعمال القبة في الوقت الذى جعل منها البيزنطيون أبرز مظاهر بنائهم . ولعله من المعقول ان نستنتج انه بتطور الفن الانطاكي ازدادت التأثيرات الشرقية فيه بازدياد تمازج الدم الشرقي بدم سكان انطاكية اليونانيين . اما قضية جعل سوريا مقاطعة رومانية ابان السيطرة الرومانية فلم يكن لها شأن في مصير الفن الانطاكي واتجاهاته لانه كان على روما ان تتعلم الكثير من انطاكية القرن الاول الميلادى وليس ان تعلّمها .

وبجانب هذا الاختلاف هناك اختلافات اخرى . فالبيزنطيون استعملوا القرميد وغطوه بقشرة خارجية من الرخام والفسيفساء . اما في سوريا الشمالية فقد تصوّر البنّائون ان الكنيسة يجب ان تكون من الحجر واعتمدوا على هذا الحجر ذاته في حفر نقوشهم وزخارفهم عليه . هذا بالرغم من وجود بعض استعمالات الفسيفساء في الارض في بعض الاماكن كتلك القطع التي لاتزال موجودة في قلعة سمعان . ولعل مايؤكد لنا مناهضة التأثيرات البيزنطية في البناء هو عدم وجود تيجان الاعمدة التي على شكل السلة والتي تختص بها بيزنطية .

ان هذا التحرر النسبي لهندسة شمال سوريا من التأثيرات البيزنطية هو اقل اثارة للاهتمام من تلك العلاقات المتنوعة مع الفن الروماني Romanesque الغربي . ويظهر ان الهندسة الرومانية تبدأ من المكان الذى وقفت عنده الكنائس السورية ومن المرجح ان تكون الهندسة السورية قد أثرت تأثيرا فعالا على الغرب . فكل من الهندسة السورية والفن الروماني الغربي يعتمد على الحجر وعلى الزخرفة فيه ويوجد في قلعة سمعان شيئان يشتركان مع الغرب بشكل قوى وهما :

١ — الواجهة الخارجية لحنية الكنيسة الشرقية بصفيها من الاعمدة المتطبقة Superposed ولو كانت هذه بحالة حسنة ونقلت الى فرانسا لما شعر المرء الذى يراها هناك بانها دخيلة .

٢ — واجهة البازيليكا الجنوبية التي ينقصها وجود برجين فوقها حتى تصلح لان تشغل مكانا مناسبا في الكاتدرائيات الغربية أى حتى تصبح كأنها قطعة فرنسية التصميم[١] .

---

(١) يراجع بشأن العلاقة بين الفن السورى والبيزنطي والغربي كتاب روبن فدن السابق ص ١٤١ — ١٤٢

ويعلق بركيت على هذا بقوله : „قد لايكون هنالك بناء آخر يعبّر كما يعبّر هذا البناء (أي القلعة) بوضوح عن اصل بناء كاتدرائياتنا القوطية (١)„.

قلعة سمعان :

يتبع المسافر من مدينة حلب الى القلعة طريق حلب — انطاكية ، ثم ينحرف باتجاه الدانا وترمانين ودير عزة . وهذا الطريق جيد حديث الصنع يتممه طريق وعر صعب المرور ولكنه مطروق . ويشاهد لمسافة اربعين كيلومترا من طريب طريق روماني يحاذي الطريق الحديث ولايزال في حالة حسنة . والمنطقة بوجه عام صخرية . يحرث الفلاحون بعض الاقسام المتفرقة حيث يظهر التراب الاحمر ويزرعون اشجار الزيتون والكرمة . وترى قطعان الماعز ترعى على اطراف التلال .

لعل اول من لفت انظار العلماء والشعب الى قلعة سمعان هو المركيز دوفوغه الذي زار المكان عام ١٨٦٢ وخصص عدة صفحات من كتابه لابراز رسومه ومنذ ذلك الزمن توافد الزائرون الى القلعة . وفي عام ١٨٩٩ أتت بعثة امريكية من جامعة برنستون ودرست الآثار ونشرت دراساتها . وأخذ الكتّاب وعلماء الآثاريكتبون عن القلعة بعد ذلك .

اما اسم الجبل المعروف اليوم بجبل سمعان (قديما جبل ليلون فقد نسب الى احد كبار النسّاك الذي اتخذ من احدى تلاله مكانا بنى عموده فيه واقام عليه . وبعد وفاة القديس عام ٤٥٩ اقام المحسنون كنيسة حول عموده وذلك في اواخر القرن الخامس الميلادي . وهي على حد تعبير روبن فدن(٢) : „اعظم آبدة مسيحية باقية من الفترة السابقة للكاتدرائيات الغربية في القرنين العاشر والحادي عشر ولعلها اعظم بناء بين الآوابد الرومانية في الفترة الممتدة بين القرن الثاني الميلادي وبين كنيسة آياصوفيا في القرن السادس„ . وجاء ايضا(٣) : „وتعد بقايا هذه الكنيسة اعظم واضخم اطلال مسيحية في الشرق بما لها من تخطيط فريد في نوعه ، وتركيب علمي في قسمها المثمن الاوسط وما في هذا القسم من اقواس مدورة وما لحنيته وواجهته الجنوبية من نسب بديعة ،ومالواحقه ككنيسة التعميد ، ولأبنية الدير الاخرى من أثر يساهم في جعل هذه المجموعة التي لامثيل لها اعظم اطلال مسيحية واضخمها في الشرق „ .

وقد عرف البيزنطيون في القرن التاسع اهمية هذا الموقع واثره في الدفاع ولذلك احتلوا الكنيسة وحصنوها باقامة سور حصين لاتزال بعض بقاياه موجودة . ويروى المؤرخ العربي يحيي ابن سعيد(٤) : „انه في العام ٩٨٥ م اعتصم البيزنطيون بالقلعة اثناء حروبهم مع سعد الدولة ،امير حلب الحمداني ووارث سيف الدولة المشهور ، فحاصرهم فيها مدة ثلاثة ايام استسلم بعدها البيزنطيون „ . وهكذا نرى ان الاسم الحاضر „قلعة سمعان „اشتق من استعمال الكنيسة للتحصن فيها .

---

(١) Rev. P.Birkett, Aleppo and its Environs. Aleppo,1944

(٢) R.Feddin,Syria,an historical appreciation,London 1947,P.137

(٣) انظر التقرير الذي اصدرته المديرية العامة للآثار بالاشتراك مع الاونيسكو. دمشق ١٩٥٥ . ص : ٣٣—٣٦

(٤) Yahya Ibn Sai'd dans la corpus Script.Orient.(Chabot) VII ed.Cheikho,1907. P: 165

تاريخ بنائها :

لايعلم تاريخ بنائها على وجه الدقة اذ لم تظهر أية نقوش مؤرخة أو غير مؤرخة في الكنيسة نفسها . وقد تكون مدفونة تحت الانقاض أو منقوشة على الفسيفساء المتهدم . ولهذا اختلف العلماء في تعيين تاريخ بنائها . فالفرنسي دوفوغه يجعله في القرن الخامس ويقول من أتى بعده من العلماء بالمقارنة مع الآوابد الاخرى انها بنيت في القرن السادس الميلادي . الا ان بتلر يرجح اواخر القرن الخامس بسبب ماظهر لديه من البراهين الاثرية والكتابية . ونحن امام تاريخ مجهول كهذا علينا ان نعتمد على احدى طريقتين في الوصول الى التاريخ التقريبي :

١ - الطريقة الاولى : هي التي ترى في بناء القلعة خلاصة تاريخ الهندسة المسيحية في سوريا .

٢ - الطريقة الثانية : هي التي ترى في بناء القلعة مركزا اوليا أو محاولة اولى في النموذج السوري للبناء الذي أخذ ينتقل منها ويعم سوريا الشمالية كلها . ومما لاشك فيه ان الكنيسة كان لها تأثير عميق في الهندسة الدينية في سوريا التي تلت بعد ذلك . ان انطاكية بما فيها من ابنية عظيمة وكنائس لايوجد فيها سوى القليل من الابنية التي تضارع قلعة سمعان اذا صح ووجد فيها ذلك القليل . فالكنيسة الكبرى التي تدعى (ابوستوليكا) التي بدأ بها قسطنطين وأتمها ابنه كونستانتيوس من بعده ، فانها رغم غناها بالزخارف وتحليها بروائع الذهب هي في الحقيقة ادنى في المرتبة كقطعة هندسية من كنيسة سمعان .

لقد سبق واشرنا الى انه لاتوجد كنائس في شمال سوريا تروى نقوشها انها تعود الى الفترة بين ٤٣١-٤٧٢ . الا ان هذا لايعني انه لم يبنى في فترة الاربعين سنة هذه أى بناء كنسي اذ انه قد تكون بنيت بعض الابنية ولكن الجهود الكبرى اتجهت شطر كنيسة سمعان في جزء من تلك الفترة بين ٤٥٠ - ٤٧٠ أى بعد وفاة القديس . ويجمع المؤرخون وفي مقدمتهم بتلر[1] ان الكنيسة بنيت في اواخر القرن الخامس . وهناك من يقول ان البناء مر بفترتين : بني المثمن في البدء ومن بعده الاطراف الجانبية وسنرى هذا حين ننتقل الى المخطط .

آ - المخطط والاقسام :

عرف المهندسون السوريون القدماء بالأصالة والابتكار يظهر ذلك بوضوح في بناء هذه الكنيسة . فقد اعترضتهم ثلاث مشاكل استطاعوا بعبقريتهم ايجاد حل هندسي لها ، فكان عليهم :

١ - ان يجعلوا مركز الرؤية يتجه نحو عمود سمعان وليس نحو مذبح أو ضريح .

٢ - كما كان عليهم ان يصمموا البناء بشكل يسمح لجموع الزائرين بسهولة الدخول والخروج .

٣ - ووجب عليهم اخيرا ان يراعوا مستلزمات الشعائر الدينية .

---

(١) H.C. Butler, Early Churches in Syria, Princeton, 1929 pp: 98-99

اوجدوا حلا للمشكلة الاولى عن طريق احاطة العمود ببناء مثمن الجوانب ينتهي في الجهات الاربع باجنحة لها شكل صليب • وحلت المشكلة الثانية بتخصيص ثلاثة اجنحة من الاربعة السابقة لدخول الزوار وخروجهم مع ايجاد مداخل عديدة • اما الجناح الرابع الذى يقع في الجهة الشرقية فقد خصص لاقامة الشعائر الدينية • وهكذا حلت المشكلة الثالثة •

لقد اراد المهندسون الذين بنوا القلعة ان يجمعوا بين الكنيسة والمعبد الجنازى (مارتيريوم) أى ان يجعلوا البناء في الوقت ذاته كنيسة تستعمل لاقامة الشعائر الدينية الى جانب كونها (مارتيريوم) مبنية حول عمود وليس حول قبر • يؤيد ذلك غرابار(١) اذ يقول : „ان قلعة سمعان هي في الوقت ذاته مارتيريوم وكنيسة „ • وكذلك اضطروا ان يجمعوا في بناء واحد نماذج مختلفة كالبناء المثمن في الوسط والاجنحة حوله • ويقول جان لاسوس(٢) : „ان البناء مر بفترتين :الفترة الاولى بني فيها المثمن والثانية بنيت فيها الاجنحة المتصلة به „ • ويقول اكوشار(٣) مؤيدا كلامه بالبراهين : „ان هنالك اختلافا في ازمان بناء الاقسام واقترح ان البناء كان بالاصل باحة مثمنة فقط تشبه بناء قسطنطين في انطاكية „ •

يظن المرء لاول وهلة ان البناء بكامله يشكل كنيسة واحدة ولكن سرعان مايبدل رأيه حين يدخل الى البناء اذ ان مخطط القلعة أى البازيليكا الذى على شكل صليب يشمل البناء المثمن في الوسط تحيط به اربعة كنائس مستطيلة الشكل أو اجنحة كما نسميها • ويتصل بالبناء بعض الابنية للتعميد والدفن • وتنتهي الاجنحة الوسطى للكنائس المحيطة بالثمن عند عقود اطراف المثمن الاربع الاساسية • اما الاجنحة الجانبية للكنائس فتنتهي بمعابد ذات اشكال شبه منحرف تتشكل بواسطة اقواس أو عقود صغيرة في داخل الاقواس الكبيرة لاطراف المثمن المنحرفة •

١ — الرواق والجناح الجنوبي :

اذا عدنا الى كنائس سوريا الشمالية وخاصة القديمة منها لوجدنا ان المدخل الرئيسي ليس ، كما يتوقع ، في الطرف الغربي بل قائم في احدى الاجنحة المحيطة وغالبا في الطرف الجنوبي • اما في قلعة سمعان فلعل هنالك سبب خاص جعل المدخل الرئيسي من الجهة الجنوبية • فالتلال التي يقوم عليها البناء لم تكن من السعة بحيث تكفي لاقامة الكنيسة بعرضها الواسع ولذلك اضطر الى بناء نهاية الطرف الغربي على دعائم مثبتة في الوادى الملاصق • وهذا يعني انه لم يكن بالامكان دخول الكنيسة من الجهة الغربية • وقد مكّن ضيق التلال هذه ، المهندسين من بناء شرفة على طول الجانب الغربي للكنيسة الجنوبية بحيث يتمكن الزائرون من التمتع بالمناظر الخلابة التي تمتد امامهم • فهذا وادى عفرين ينتشر امامهم وسلسلة كرد ضاغ من ورائهم وتبدو سلسلة الامانوس في الافق البعيد • لقد تهدمت الشرفة ولكن هذه المناظر الطبيعية ما زالت موجودة في مكانها • ولعل مايزيد في

(١) A.Grabar, Martyrium, 2 vols. Collège de France, 1946 V.II, P.364

(٢) Op.Cit., P. 277

(٣) M.Ecochard,Le sanctuaire de Qal'at Sem'an Bulletin de l'Institut Française de Damas,1936,T.VI PP:61-90

جمال المكان هو ان الناظر حين يمل من رؤية احجار هذه الابنية المتهدمة القائمة حينذاك ينقل الطرف في الافق البعيد بما فيه من جمال الطبيعة . وهذا مايعلل لنا اختيار سمعان للمكان .

اذا القينا نظرة عامة على المكان من الخارج نجد ان ابعاد وزخارف المدخل الرئيسي الجنوبي على غاية من الروعة . الّا ان حجم وجمال الكنيسة كلها لايتراءى لنا من نظرتنا الخارجية . ولاتكتمل تلك الصورة الرائعة عن الكنيسة الّا حين نلجها الى الداخل ونصل مركزها ، هناك ينكشف لنا البهاء والروعة .

اما مقاييس البازيليكا أو القلعة باجمعها فهي كمايلي :

المسافة من الغرب الى الشرق تبلغ ١٠٠ م
المسافة من الشمال الى الجنوب تبلغ ٨٨ م
المساحة العامة تبلغ ٣٨٤٠ م²
ويبلغ قطر المثمن ٢٨ م

يؤدى بنا الرواق من خلال اربعة ابواب الى الجناح الجنوبي ، وهو احدا الاطراف الاربعة التي تؤدى الى البناء المثمن . ومما يجدر ذكره ان الابواب هنا كثيرة على خلاف ماتراه في غيرها والغاية من ذلك تسهيل دخول الزوار الكثر . والجناح الجنوبي هذا عبارة عن قاعة شبه مربعة طولها ٢٥ م وعرضها اربعة وعشرون مترا . وهي متهدمة في الداخل وتعمل مديرية الآثار اليوم على تدعيم الاقواس التي تعلو الابواب في المدخل الرئيسي .

٢ — الجناح الغربي :

هذا الجناح الذى ذكرنا ان اكثر من نصفه مبني على دعائم ذات اقواس هو من اكثر الاجنحة تهدما وهو مليء بالاحجار المنهارة ولاتزال بعض اقواس الدعائم قائمة في مكانها وان كان بعضها الآخر قد تهدم . وينقل جوزيف ماترن[1] عن اكوشار ما معناه ان طريق الحجاج كان يمر في السابق من هذا الجناح من الرواق الرئيسي الذى تكلمنا عنه . يؤيد ذلك بقايا طريق في الجهة الشمالية من هذا الجناح . واذا صح هذا الطريق فانه يشرف على وادى عفرين وسهل وبحيرة انطاكية وسلسلة الامانوس .

٣ — الجناح الشمالي :

لهذا الجناح المستطيل ثلاثة ابواب تنفتح على رواق معمد . وقد تلاشى صفا الاعمدة وقواعدها . والعمود هنا من قطعة واحدة من الحجر الكلسي الابيض وتاجه من النموذج الكورنثي . ونرى في الجهة الغربية من هذا الجناح معبدين كانا بالاصل عبارة عن رواقين ينفتحان على الجناح وتابعان لبعض العموديين .

---

(١) J.Mattern, Villes Mortes de haute Syrie, Beyrouth,1944

٤ — الجناح الشرقي :

ان الاجنحة او الكنائس الثلاثة السابقة كانت عبارة عن ممشى للجموع المتدفقة لمشاهدة العمود . وليس هنالك من شك في ان هذا الجناح الشرقي او الكنيسة الشرقية بحنيتها المثلثة وزخارفها الباقية كانت تستعمل للعبادة . وهي اطول من البقية اذ لها تسعة ابهاء في الوقت الذي يوجد فيه سبعة لكل من الاخرى . وهي الوحيدة المزودة بحنيات يبلغ عددها ثلاثة . احدها كبير ويوجد في نهاية الجناح في الوسط والآخران صغيران ويوجدان في النهايات الجانبية .

٥ — البناء المثمن :

هو مركز البازيليكا كلها اذ قام حول عمود سمعان الذي يتوسط المكان . وقد أشرنا سابقا الى مايعتقده لاسوس واكوشار من ان المثمن قد بني اولا ثم تلاه بعد زمن بناء الاجنحة الاخرى . وهذا البناء هو عبارة عن اقواس ثمانية على شكل مثمن هندسي . ويلاحظ اليوم ان ثلاثة من هذه الاقواس قد سقطت . اما الاقواس الخمسة الاخرى مع الاعمدة والاحجار التي تسندها فلاتزال باقية . ويتصل البناء المثمن بالاجنحة الاربعة حوله باربعة حنيات تهدم احدها ولاتزال الاخرى باقية . وفي الوسط من هذا المثمن تقوم قطعة حجرية هي كل مابقي قائما من العمود الذي جلس عليه سمعان . وهي ذات شكل مكعب طول ضلعه ٢ م .

هذه هي اقسام البازيليكا بمجموعها من بناء مثمن في الوسط واجنحة او كنائس اربعة تحيط بها وتتجه تقريبا باتجاه الجهات الاربع الجغرافية . لقد قلنا „ تقريبا „ ذلك انه اكتشف خلال التنقيبات التي اجرتها جامعة برنستون بان المحور الشرقي — الغربي للكنيسة ليس مستقيما كما يرى في مخطط دوفوغه اذ ان الجناح الشرقي او الكنيسة الرئيسية تميل نحو الشمال بعدة درجات .

يعترف بتلر (١) ان المركيز دي فوجه أوفى القلعة نصيبها من البحث والتنقيب الا ان المهندس . نوريس الذي صحب بتلر وكان مزودا بآلات الهندسية الدقيقة أوجد اشياء جديدة في القياسات لم يفطن لها دوفوغه لعدم توفر هذه الآلات لديه . وقد تبين لبتلر استنادا الى تحقيقات المهندس نوريس ان الجناح الشرقي لهذه القلعة منحرف نحو الشمال وليس مستقيما كبقية الاجنحة الاخرى . وقد نشر بتلر مخططه الجديد الذي يختلف نسبيا عن مخطط دوفوغه . اما تفصيل ماقام به المهندس نوريس للبرهان على ما سبق فهو كمايلي :

اقام مرتبا للمرور Transit instrument فوق مركز سطح العمود الموجود في مركز المثمن ، وظهر انه اذا رسمنا خطا يتجه نحو الشمال الجغرافي فان هذا الخط يمر من الزاوية الشمالية الغربية للجانب الشرقي . واذا مددنا هذا الخط الى الجهة المقابلة

---

(١) للتوسع في هذا يراجع كتاب بتلر Early Churches in Syria ص : ١٠٢ بالاضافة الى كتابه الآخر Ancient Architecture in Syria ص : ٢٨١
cf . Karl Baedeker, Palestine and Syria. PP: 381-385
5 th.ed.Leipzig,1912

فانه يخترق الزاوية الجنوبية الشرقية للجناح الجنوبي • واذا رسمنا خطا يمر من مركزالقوسين ، الشمالي والجنوبي للمثمن فان هذا الخط ينصف الجناحين الشمالي والجنوبي • واذا رسمنا خطا عموديا على هذا ، أى بشكل زاوية قائمة ، لتبين لنا انه ينصف الجناح الغربي واذا مددنا هذا الخط الى الشرق فاننا نراه لاينصف الجناح الشرقي ولكن ينحرف بمقدار ٢ر٤٣ م جنوبي وسط الحنية • وهكذا يتبين لنا مما سبق ان محور الجناح الشرقي أى الكنيسة الشرقية ينحرف الى شمال خط عمودى على المحور الرئيسي للجناحين الشمالي والجنوبي • الّا انه رغم هذا الميل فان محور الجناح الشرقي الجديد لايشكل زاوية قائمة حقيقية مع الخط الشمالي الجغرافي • وهذا يستدعي ضرورة اعادة تمثيل الابنية الرهبانية الواقعة الى الجنوب الشرقي من الكنيسة الشرقية •

نرى من مخطط البناء ان اربعة ممرات بشكل شبه منحرف تصل مابين البناء المثمن والصحون الجانبية للاجنحة الاربعة • وتنفتح على هذه الممرات في الزوايا اربعة معابد بشكل انصاف دوائر • والمعبدان ، الجنوبي — الشرقي والشمال — الشرقي ، هما اجمل الاربعة وينفتحان على قوس اكبر واكثر زخرفا من القوسين الآخرين • ولكل معبد من هذين المعبدين ثلاثة نوافذ على عكس المعبدين الآخرين اللذين لاتوجد لهما أية نافذة • بعد ان رأينا الجدران والجوانب في البناء ننتقل الى مسألة اساسية وهي :

ب — السقف :

لقد تساءل كرنكر ، المهندس الالماني الذى عمل في ترميم آثار بعلبك بين عامي ١٩٠٢—١٩٠٣ ، تساءل عما اذا كان البناء المثمن المحيط بالعمود مسقوفا بالاصل • ومنذ الوقت الذى درس فيه دوفوغه القلعة وتبعه بتلر بدراسته ، بدا من الغريب ان يكون البناء بدون سقف لان هذا اساسي بالنسبة للجموع التي ترتاد المكان • يعتقد كرنكر بان البناء المثمن كان مسقوفا اما بسقف له ثلاثة زوايا أو بقبة من الخشب • وقد أتى سميث[١] بآراء اخرى اذ قال : „ان قطر البناء المثمن يبلغ ٢٧ م (يقول بتلر انه يبلغ ٢٨ م) وسمك الجدران ٨ر٠ من المتر واذا قدر للمثمن ان يكون مسقوفا فيجب ان يكون السقف من الخشب الخفيف „ • الّا انه منذ وصفها ايفاغريوس[٢] (٥٣٦—٦٠٠) ، المؤرخ السورى سنة ٥٦٠ وقال عن البناء المثمن : „انه بناء ينفتح نحو الفضاء „ اعتقد العلماء استنادا لتعبيره السابق ان البناء كان مكشوفا • ومن هؤلاء جوزيف ماترن الذى يقول في كتابه السابق : „لعل هذا الرأى هو الاصوب اذ انه من الصعوبة بمكان سقف بناء كبير كهذا „ • الّا ان كرنكر الالماني[٣] الذى تفحص البقايا سنة ١٩٣٩ والّف كتابا بالالمانية عن القلعة ، ظهر له البرهان الاكيد بان البناء كان مسقوفا • ويعلل صحة قول ايفاغريوس وصحة قوله هو ايضا بان السقف كان متهدما حين زار ايفاغريوس القلعة • وبالنظر لحب المسيحيين للتقاليد وللاهمية المعطاة للغطاء الرمزى للكنائس وللاماكن الدينية فمن غير

(١) للتوسع في امر السقف يراجع موضوع „كنيسة سمعان العمودى „ في كتاب : B.Smith, The Dome,a study in the history of ideas,Princeton,1952

(٢) Ecclesiastical history.Eng.translation by L.Marmentier and J.Bidez,London,1898

(٣) للتوسع في نظرية دانيال كرنكر انظر كتاب : Smith,B., Op.Cit., under article: St.simeon,church.

المحتمل ان يبقى العمود دون غطاء رمزي في القرن السادس • ولما كان الاعتقاد السائد آنذاك بان القبب الكنائسية هي رموز سماوية تزينها النجوم فمن المرجح ان ايفاغريوس اكتفى باشارته السابقة الى المعنى الفكري الشائع دون ان يجد من حاجة للكلام عن القبةالحقيقية التي كانت موجودة في السابق دون شك •

وقد أكد كرنكر بان البناء كان مغطى في وقت ما لانه وجد ادلة كثيرة تشير الى ذلك منها قطعا حجرية تعود الى افاريز البناء وهي ذات حزوز مفرضة تستعمل لارتكاز خشب السقف • كما وجد قطعا من تلك الحلقات التي هي على شكل نعل حدوة الفرس والمرتكزة الى دعامات ناتئة Brackets في زوايا الافاريز • فاستنتج كرنكر من ذلك ان مثل هذه البقايا في حالتها الصحيحة بالاصل لايمكن ان تستعمل الّا لضرورة ملائمة وهي توفيق قاعدة القبة الخشبية المستديرة مع جدران البناء المثمن • لانه لو صح ان القبة كانت ذات اضلاع متعددة وليست مستديرة لما كانت هنالك من حاجة لمثل هذه الدعائم الناتئة اذ ان القبة المتعددة الاضلاع تتلائم دون ما واسطة مع الجدران المتعددة الاضلاع •

هذا ولما كانت النوافذ والفتحات في القلعة على شكل نعل حصان شأنها في ذلك شأن فتحات المارتيريوم في الرصافة ، ولما كانت اشكال نعل الحصان تتعدد بكثرة في حنيات الكنائس في شمال سوريا مما توحي بانها يجب ان تكون في الاصل قد استعملت في هندسة المواد الخشبية واللدنة ، فان كرنكر تبعا لذلك يؤكد ان للبناء المثمن قبة وان هذه القبة من الخشب • ويضيف ان لهذه القبة طبقتان والطبقة الخارجية منهما ذات شكل قبي وهي اشبه بالقبة المخروطية لبناء مارنيون الوثني في غزة وبالقبة الخشبية في مسجد قبة الصخرة •

جـ — الزخارف :

اذا اتينا الى زخرفة الكنيسةنجد ها غنية وهي تشمل جميع النماذج الموجودة في كنائس شمالي سوريا في القرن الخامس • فبجانب النقوش ادخل التلوين وذلك ليس عن طريق استخدام المواد المختلفة الالوان فقط بل عن طريق ادخال التلوين في الزخارف • والجدير بالذكر ان الارض كانت مغطاة بالفسيفساء الملونة ومن المحتمل ان الجدران كانت مغطاة بالرسوم • وقد زينت عقود المثمن الثمانية باجمل الحلي على كلا الجانبين • وهذه الاقواس ذاتها ترتكز على اعمدة من رخام بنفسجي وتيجان كورنثية النماذج •

ان النقوش التي توشي العقود الكبرى من المثمن تنتقل من قوس الى آخر على مستوى واحد • اما النقوش الخارجية فهي عبارة عن طنف Cornice يعلو الافريز ويستند على دعائم صغيرة Consoles وتشكل ثغرات حلزونية الشكل • وهذا الافريز ينتقل من قوس الى آخر • وتوجد فوق تيجان الاعمدة احجار نافرة الى الخارج مكعبة الشكل تحمل فوقها دعائم في زوايا المثمن • وهذه الدعائم بدورها تحمل احجارا نافرة تحمل هي الاخرى فئة اخرى من الدعائم تمتد حتى افريز المثمن المستقيم •

اما القوس الكبير للحنية في الجناح الشرقي فهو مزدان بالزخارف اكثر من اقواس المثمن • فهنا نجد عدة نقوش جميلة ونرى هنا مايفوق الافريز البسيط الذي شاهدناه في

اقواس المثمن ، فنا وزخرفة اذ تزينه اوراق نبات شوكة اليهود (اكانتوس) • ونوافذ الحنية الخمسة موشاة بالنقوش المحززة وهي على مستوى نقطة انطلاق الاقواس •

اما الحنيات الجانبية في الجناح الشرقي فحظها اقل في الزخرف من الحنية الكبرى • واذا انتقلنا الى بقية الزخارف الداخلية فنشاهدها على ممرات الصحون المقنطرة • وجميع هذه متهدم الآن الّا انه ليس من الصعب تخيل نموذج الزخرفة • فالاعمدة جميعها تقوم على قواعد واطئة والتيجان هنا لها نفس الاشكال التي رأيناها في اعمدة المثمن الكبير • اما الاقواس فلها ايضا فجوات في اسفلها وقد تتعدى هذه الفجوات الاثنتين • وفوق هذا المستوى تماما اقيمت مساند ناتئة بين النوافذ لتحمل الاعمدة التي تسند الرفاريف المزدوجة تحت اخشاب السقف الكبيرة •

اذا انتقلنا الى زخرفة الكنيسة الخارجية لوجدنا انها لاتقل بشيء عن الداخل ولعل اجمل مظاهرها يتجلى في الرواق (نارتكس) الجنوبي ونهاية الطرف الشرقي • اما ماعداها من الجدران الجانبية والواجهة الشمالية فزخارفها تتبع النماذج المألوفة التي نراها في كنائس القرن الخامس •

ان الرواق أي المدخل الجنوبي يتألف من قوس متوسط عريض بين قوسين ضيقين وهذه الاقواس الثلاثة تتصل بالواجهة الرئيسية باربعة اقواس اعلى منها • وهذا الترتيب استدعى وجود اربع دعائم مزدوجة • وهذه تتألف من ثلاث دعائم يحمل كل منها قوسها ودعامة خارجية من النوع ذاته التي تقوم مقام الركيزة على الاسلوب التوطي • والدعائم المزدوجة ذات تيجان كورنثية كبيرة تناسب اشكالها وسطحها مخدد • اما صنجات Voussoirs القوس المركزي (أي الفتحات) فتستند على اعمدة كورنثية مستقلة عن الركائز • وكل من الاقواس يعلوه جملون أي سقف هرمي Gable • وليس هنالك من مثيل لزخرفة الحنية الرئيسية الخارجية سوى في الهندسة الكلاسيكية لاننا نجد هنا طابقين واعمدة معلقة وليس عدة اعمدة منظمة تحت الاقواس كما في الطريقة الرومانية • وهي اقرب الى الاعمدة المتطابقة التي يستعملها اليونانيون • ومابقي من الزخرفة الخارجية فهو تعبير عن اسمى انواع الزخرفة المعروفة في شمال سوريا •

اما الابواب فتعلوها اقواس عالية او منخفضة محلاة بالنقوش على اطاراتها • ويقول (بركيت) في المصدر السابق : « انه وان كانت بعض الاعمدة ذات نموذج كورنثي الّا ان النقوش على البناء من الخارج وتلك التي تحيط باعالي الابواب والنوافذ وجوانبها هي من اصل محلي ولاتوجد في غير هذا الجزء من العالم » •

هذه هي الاقسام الرئيسية للبناء بما فيها من زخارف ونقوش الّا انه يلتصق بها بناءان آخران هما : الدير وبيت المعمودية •

الدير : يقع الدير الى الشرق والجنوب الشرقي من الكنيسة الكبرى ويستعمل قسم منه لايواء الزائرين احيانا وهو يشرف على باحة واسعة يحيط بها رواقان يتألف كل منهما من طوابق ثلاث • وهنالك معبد مقابل الجناح الشرقي للبازيليكا ومن المرجح ان الرهبان كانوا يستخدمونه في اعمالهم • والدير هذا مليء بالكتل المتساقطة المتهدمة • ويرجح ان قاعدة

العمود المربعة التي وجدت في الباحة في محور المعبد هي احدى قواعد اعمدة سمعان الاولى ، اذ قد رأينا كيف تنقّل العمود . وربما ان احد اتباع سمعان ومقلديه قد أقام عمودا بقيت قاعدته مرئية حتى اليوم .

بيت المعمودية : حين يصعد المرء على الطريق القديم المقدس Via Sacra ، متوجها من المدينة الى القلعة ، يجد آثار بيت المعمودية القديم . وترى بقايا الجدران والنوافذ قائمة . وتقوم قاعة مثمنة على ثمانية اعمدة ضمن بناء مربع ويحيط بها حنيات منخفضة . وكانت جوانب الاعمدة الداخلية والخارجية لهذا البناء مزخرفة وممتلئة بالنقوش الجميلة . اما السقف فكان مغطى بقطع خشبية ذات اشكال مخروطية . وفي جانب من جوانب بيت المعمودية تقوم جدران صغيرة هي بقايا معبد صغير وبجانبها يقوم مسكن لايواء القائمين على العمل ، كما يرجح .

المدينة او الدير :

يسمى الطريق الذي يذهب من القلعة باتجاه جنوبي غربي الى المدينة ، واسمها القديم تل نيشه ، بالطريق المقدس Via Sacra . ويجدر تتبع هذه الطريق القديمة لنرى الاماكن التي اقتطعت منها صخور البناء ، ولم يسلم هذا الطريق المقدس من الدمار باستثناء قوس نصر نصف متهدم وهو اليوم مليء بالاحجار واشجار الزيتون المبعثرة . وقد نشأت المدينة كمركز ديني لايواء الزائرين ولذلك وجدت فيها كنائس واديرة وفنادق . وهنالك فندقان يحملان تاريخ ٤٧٩ م . وهذا يعني ان المكان اصبح معروفا يومه الزائرون بعد وفاة سمعان بعشرين سنة .

آ - المخطط والاقسام :

كانت هذه المدينة في بدء تاريخها غريبة بضخامتها بالنسبة لمدن سوريا الشمالية الصغيرة وهي مدينة بشهرتها بل بوجودها الى قوافل الزائرين التي كانت تفد الى المكان . وقامت طائفتان أو ثلاث طوائف دينية ببناء اديرة كبيرة في المدينة وشيدت الى جانبها بعض الفنادق لايواء الغرباء .

اما عن الابنية الخاصة فهنالك القليل منها الذي يشير الى انها استعملت كمساكن خاصة وهناك ساحة عامة بجانب احدى الطرق الرئيسية تملأ جوانبها الدكاكين لتزود الزائرين بما يلزمهم من الطعام والادوات الدينية . الّا ان القسم الاكبر من المدينة مخصص لبناء المضافات والفنادق على اختلاف انواعها ورتبها . والجدير بالذكر ان المضافات او الفنادق سواء منها الفنادق المتصلة بالاديرة او المنفصلة على طرف الهضبة لاتظهر عليها أية نقوش تعرّف بها ، ورغم ان هذه غير ضرورية الّا ان احد الفنادق الصغيرة منقوش فوق بابه الرئيسي كلمة باندوكيون Pandocheion وهنالك كثير من الابنية نشاهد آثارها الآن لاتظهر عليها نقوش باسمائها ولكنها استعملت دون شك ، لهذا الغرض . نستنتج مما سبق ان المدينة عبارة عن مجموعة اديرة وفنادق تتوزعها بعض الدكاكين . والآثار المتبقية اليوم تشغل مكانا يبلغ طوله نصف ميل وعرضه ثلث ميل وتخترق المدينة شوارع مستقيمة . ويقوم مدخل واسع من الجهة الشرقية يتجه نحو القلعة عبر الطريق المقدس .

ان كلا من زوايا المدينة الاربع التي هي شبه مستطيلة يقوم فيها بناءهام • ففي احدى الزوايا يقوم الدير الجنوبي - الغربي الكبير • وفي اخرى الدير الشمالي - الغربي • اما في الزاوية الشمالية - الشرقية فتقوم الكنيسة الشمالية • ويقوم فندق كبير في الزاوية الجنوبية - الشرقية • وفي منتصف الجانب الشرقي من المدينة تقوم مجموعة الابنية المؤلفة من الدكاكين والمخازن • والى شمال - غربي هذه المجموعة بمائة متر يقوم بناء من ثلاثة طوابق يشكل اجمل بناء علماني في المنطقة • ويعلن بتلر[1] على الابنية السابقة فيقول : „انها ابنية يغلب على بنائها طابع الربح والكسب اكثر من الراحة وحسن الصنع • فهي واسعة ذات جدران خشنة ويغلب على الظن ان اصحابها من كبار الملاكين والمستثمرين الذين رأوا ان يبنوها بسرعة وعدم اتقان لاستيعاب ذلك الوفر المتدفق من الناس" • وسنتكلم عن اهم الابنية في المدينة[1] :

١ - الدير الجنوبي :

تشتمل ابنية الدير الجنوبي على معبد ومضافة وثلاثة ابنية كبيرة متجمعة حول رواق يشكل حرف L • فالمعبد يقع في وسط الطرف الشرقي يحده من الجنوب بستان مسيّج ومساكن للكهنة تمتد حتى الشمال • ويقوم فندق كبير في شمال هذه المجموعة كما يقوم فندق آخر مشابه في الطرف الغربي • وينتصب الى الجنوب بناء كبير ثالث يظن انه كان فندقا في القديم • والمعبد سليم على وجه العموم ولاينقصه سوى السقف • ومخطط الفندق العام يشتمل على غرفة كبيرة في الوسط تلحق بها غرفتان صغيرتان وكل فندق محاط برواق يتألف من طابقين من الاعمدة •

٢ - الدير الغربي :

ابنية هذا الدير لاتزال في حالة حسنة وتشغل مكانا طوله ٧٠ م وعرضه ٥٠ م • وتشتمل على معبد ومساكن وفنادق اشبه بالدير الجنوبي • وتشغل الكنيسة هنا الطرف الجنوبي الغربي من المجموعة والى الشمال منها باحة مغلقة كبيرة ذات ابعاد غير متساوية تحيط بها ابنية تتجه نحو الشرق • وتمتد شرفة عالية على طول الجدار الشمالي لصحن الكنيسة ويوجد في طرفها الشرقي بعض الدرجات • وهنالك باحة أو رواق مربع صغير يتصل بطرف الكنيسة الشرقي وهو على مستوى اخفض من مستوى الكنيسة • وهذا الرواق عبارة عن كامبو سانتو Campo Santo ذو مدخل جميل يؤدي الى الباحة المغلقة • ويوجد مقابله بناء من نوع (البندوكيون) ذو ابعاد متوسطة • والفنادق الكبرى مؤلفة في الغالب من طابقين وجدران مستوية عالية ولها مداخل معمدة •

ان بناء (الكامبو سانتو) ظاهرة جديدة في فن الهندسة • فالى الشرق من الكنيسة وعلى مستوى ينخفض ثلاثة امتار عنها توجد باحة مستطيلة تقريبا تنفتح من ناحية الشمال باتجاه الرواق الرئيسي للدير • والمدخل عبارة عن دهليز ذو اقواس ثلاثية • وهذه الاقواس سليمة وذات احجام متفاوتة •

---

(١) للتوسع في المعلومات عن هذه الابنية يراجع :

1-H.C.Butler,Early Churches in Syria, Princeton 1929,pp:105-109

2-H.C.Butler,Ancient Architecture in Syria,Leyden 1920.PP:267-280

٣ — الكنيسة الشمالية :

تقع في المنطقة الشمالية الشرقية ولاتزال اليوم واجهتها الغربية قائمة وبعض اقسام جدرانها الجانبية . اما الاعمدة والاقواس الداخلية ونصف قبة الحنية وجدران الغرفة الشمالية الشرقية فقد تهدمت جميعها . ومخططها نموذجي الشكل فلها صحن ذو خمسة ابهاء وحنية وغرف جانبية داخل جدار شرقي مستقيم .

٤ — البندوكيون الكبير :

ان البناء الضخم الذي هو نصف متهدم الآن والواقع عند اسفل منحدر الجبل في طرف القطاع الجنوبي الشرقي في المدينة قد وصفه المركيز دوفوغه بانه بندوكيون . ويلاحظ فيه بناءان منفصلان وكلاهما محاط برواق مؤلف من طابقين على الطريقة الشائعة في الابنية الاخرى . ولا تزال حالة البناء الجنوبي منهما حسنة باستثناء بعض الاجزاء الوسطى في الجدران الجانبية وبعض اقسام الاروقة القريبة التي تهدمت . اما البناء الشمالي منهما فذو ابعاد كبيرة ولاتزال بعض اجزاء الجدران في قسمه الجنوبي وبعض اجزاء الاروقة في حالة جيدة . ولايقسم البناء الجنوبي سوى جدار واحد يجعل من القسم الجنوبي منه غرفة كبيرة أو قاعة . والجدار الشرقي لهذه القاعة من البناء الجنوبي يحتوي على قوس عريض يؤدي الى غرفة اخرى تشغل عرض الرواق كله .

هنالك مجموعة من الابنية على الطرق الرئيسية التي تخترق المدينة من الشرق الى الغرب بعد النقطة التي يتفرع منها ليتصل بالطريق المقدس . واكثر هذه الابنية هي فنادق للطبقة الفقيرة وقد دعاها بتلر « باحة القانون » لانها عبارة عن بناء عام ينظر اليه باحترام . والارض التي اقيمت عليها الابنية عبارة عن مستطيل طوله ١٥ م وعرضه ٨ م يتصل به قوس ضخم . ولاتزال الجدران والقوس الكبير قائمة في الداخل اما الرواق الامامي فقد انهار وتشاهد اعمدته اليوم بين البقايا . ومما تجدر الاشارة اليه ان الطرف الجملوني للبناء وضع فوق الجدار الرئيسي وليس فوق الرواق وبهذا يختلف عن ابنية الفترة الكلاسيكية . ويجب ان نلاحظ ان الابواب المتقابلة في البناء السابق تذكرنا بالابنية الفخمة التي شيدت في عهد الامبراطور فيليب في الصمير في حوران . وتفاصيل البناء تدل على تاريخ يعود الى اقدم من القرن الخامس .

يعلق بتلر على الفندق الذي يصفه المركيز دوفوغه في كتابه « سزريا الوسطى » بانه واقع بالقرب من الكنيسة الشمالية السابقة بقوله « ان ذلك الوصف مختلط وسيء الدلالة ». الا انه يعود فيقول : « ان الابنية في زمنه اكثر تهدما عما كانت عليه حين شاهدها دوفوغه » .

وهنالك بناء يقع الى الغرب من الابنية السابقة يطلق عليه بتلر اسم المسكن رقم واحد . وهو بناء جميل مؤلف من ثلاثة طوابق ويبدو انه مسكن خاص رغم انه قد يكون احد الفنادق . ومما لاشك فيه انه احد مساكن كثيرة ذات ثلاثة طوابق وقد قاوم الزلازل الارضية زمنا طويلا .

الزخارف :

تميز البيوت الخاصة في المدينة براعة البناء اذ هي مصنوعة ومزخرفة من الحجر دون استعمال الآجر . وبلغ من الدقة في البناء ان الاصطبلات بنيت بنفس العناية وبقطع صخرية

منحوتة . وكان يعلو البيوت كالكنائس سقوف خشبية مقببة . وكانت الطوابق التي تلي الاولى من الخشب . واحتفظوا بالنموذج اليوناني الذي يجعل فوق الاعمدة ارشيتراف (عتبات عليا) . وكانت الواجهة التي تطل على الشارع لهذه البيوت دون أية زخرفة كالعادة الشرقية . وتكون الزخارف عادة من الداخل على الواجهة التي تطل على الباحة الداخلية .

اما النوافذ فكانت في الاصل مربعة وغير مزخرفة ولكن المهندسين توصلوا في القرنين الخامس والسادس الى صنع نوافذ مزدوجة يفصل بينهما عمود صغير .

ويكون الدرج الذي يؤدي الى الطوابق العليا من الخارج عادة أي من الباحة . وفي هذه الباحة توجد البئر . وسكان هذه البيوت ينقشون على مداخل بيوتهم بعض الاشارات الدينية . اما نقوش الابنية فتكتب باللغة اليونانية ومع ان السريانية شاعت اكثر منها في القرنين الخامس والسادس فلم تحل محل اللغة الرسمية تماما . وبالمناسبة اذكر انه ظهر بين انقاض القلعة وثيقة كتابية تستحق الدراسة لما فيها من اهمية ولما تعكسه لنا من مميزات في النقوش الكنائسية عامة . وقد تم اكتشافها ربيع سنة ١٩٣٨ من قبل كرنكر الالماني اثناء حفرياته . وبحث في النقش عالمان وهما : B.Meissner و H.Lietzman . والنقش يتعلق ببناء الدير الملحق بالكنيسة الشرقية والجناح الشرقي من القلعة وذلك خلال القرن العاشر . والقطعة عبارة عن نقش اسود على ارضية من الفسيفساء الابيض . والكتابة فيها تنقسم الى قسمين :

١ ــ اللغة اليونانية وتشغل السطر الاول وثلث السطر الثاني .
٢ ــ اللغة السريانية وتشغل مابقي من السطر الثاني .

وقامت مناقشات حول الكتابة فهل تمثل شيئا واحدا في اللغتين أو الى اختلاف في الفترات الزمنية لاقامة البناء ؟ ولكن كيف تم ذلك التوافق بين السريانية واليونانية في الفسيفساء اذا افترضنا انهما كتبا في ازمنة مختلفة . واخيرا يجمع على ان الكتابة اليونانية تمثل عملية ترميم اجريت في الكنيسة الاصلية وقد تممت اللغة السريانية مالم تشر اليه اللغة اليونانية(١) .

الترميمات قديما وحديثا :

ننتقل الى قضية الترميمات وكيف تمكن امثال دو فوغه وبتلر من تصور المقاييس الاولية للبناء الاصلي ؟ . انهم يستقون ذلك من مصدرين :

١ ــ من التفاصيل الموجودة في البقايا المتهدمة .
٢ ــ من الابنية السليمة الاخرى في مختلف انحاء البلاد التي تحمل تفاصيل مماثلة . أو من هذين المصدرين مجتمعين .

---

(١) للتوسع في هذا يراجع مقال اوبرمات في :
Journal of Near Eastern Studies,Vol.V. Jan.1946. pp: 73-82

مثال ذلك ترميم اطراف الجملون او السقف الهرمي Gable للبازيليكا بالرجوع الى التفاصيل الموجودة بين الانقاض وبالمقارنة مع الابنية الاخرى السليمة التي تماثلها . وهنالك تصاميم تصورها دو فوغه وبتلر عن القلعة نجدها في كتبهما .

اذا نظرنا الى القلعة كما هي عليه من تهدم وانهيار نجد ان حوالي نصف الجدار الشمالي للجناح الغربي لايزال قائما . اما الجدار الشمالي في الجناح الشرقي مع الحنية فيه فكلاهما سليم بكامله . اما القاعة المثمنة فلا تزال خمسة من اقواسها بحالة سليمة مع ما فيها من زخارف وبالاضافة الى الاحجار الناتئة التي تحمل الاعمدة الصغيرة في الزوايا . ولاتزال بعض رفاريف الافريز الكبير في مكانها اما ما تهدم منها فيوجد بين الانقاض . ولاتزال الواجهة الشمالية للبازيليكا قائمة في مكانها فالطابق الاول سليم بالاضافة الى الاطراف السفلي للنوافذ المربعة في الطابق الثاني . وكذلك لاتزال الابواب الرئيسية للمدخل الجنوبي قائمة .

اما اليوم فالمديرية العامة للآثار جادة في ترميم القلعة وتظهر اهتماما في امكانية اصلاح الطريق الذي يؤدي اليها لانها في ذلك تحافظ على تراث البلاد عدا عن مساهمتها في تطوير اقتصاد المنطقة وجني موارد هامة من عائدات الزيارة يمكن رصدها لمعالجة الابنية القديمة واعادة تشييد ما تهدم منها .

× × × × × × × × × × × ×
× × × × × × × × × × ×
× × × × × × × ×
× × × × × ×
× × × ×
× ×
×

انتهى

المصادر :

Butler,H.C. : Ancient Architecture in Syria.
Publications of the Princeton Archeological expeditions to Syria,in 1904-1905 and 1909, Div.II,Leyden, 1920

Butler,H.C. : Early Churches in Syria,Fourth to seventh centuries.
Edited and completed by E.B.Smith,Princeton 1929.

De Vogué,E.M.: Syrie Centrale,architecture civile et religieux du 1 er au VIIe siècle.
2 vols.Paris,1865-1877

Ecochard,M. : Le Sanctuaire de Qal'at Sem'an
Notes archeologiques de l'institut Français de Damas. Tome VI. PP:61-90, 1936

Feddin,R. : Syria,an historical appreciation.
2 nd imp. London, 1947

Lassus,J. : Sanctuaires Chrétiens de Syrie, du IIIe siècle à la conquéte musulmane.
Paris,1947

Mattern,J. : Villes mortes de haute Syrie.
Mélanges de l'Université St. Joseph.
2 nd ed. Beyrouth,1944

Nöldeke,T. : Sketches from Eastern history.
Trans. by J.S. Black and revised by author.
London,1892

Obermann,J. : A composite inscription from the church of St.Simeon the Stylite.
Journal of Eastern Studies,Vol.V. Jan.1946

Saouaf,S. : Qal'at Sem'an,monastère de St.Simeon et ses alentours.
Alep,1955

Smith,B.E. : The Dome, a study in the history of ideas.
Princeton University Press,1950

Toutain,J. : La légende Chrétienne de St. Simeon Stylites et ses origines Paiénnes.
Revue de l'Histoire des Religions.
T.LXV,PP: 171-177, Paris, 1912

Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie.
V.sous: Stylites

A Dictionary of Christian Biography. ed. W. Smith and H.Wace. Vol. IV, London,1887

١ - محمد حمدي البكري ومراد كمال - تاريخ الادب السرياني
مجلة المقتطف - الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر بعد المئة
يوليو ١٩٤٩ - ص: ١٠٤ - ١٠٦

٢ - الخوري جبرائيل رباط - اسألوا الآثار عن مجد الاجداد (جولة علمية في قلعة سمعان)
مجلة العاديات السورية - حلب ١٩٣١ - ص: ٧٦ - ٨٨

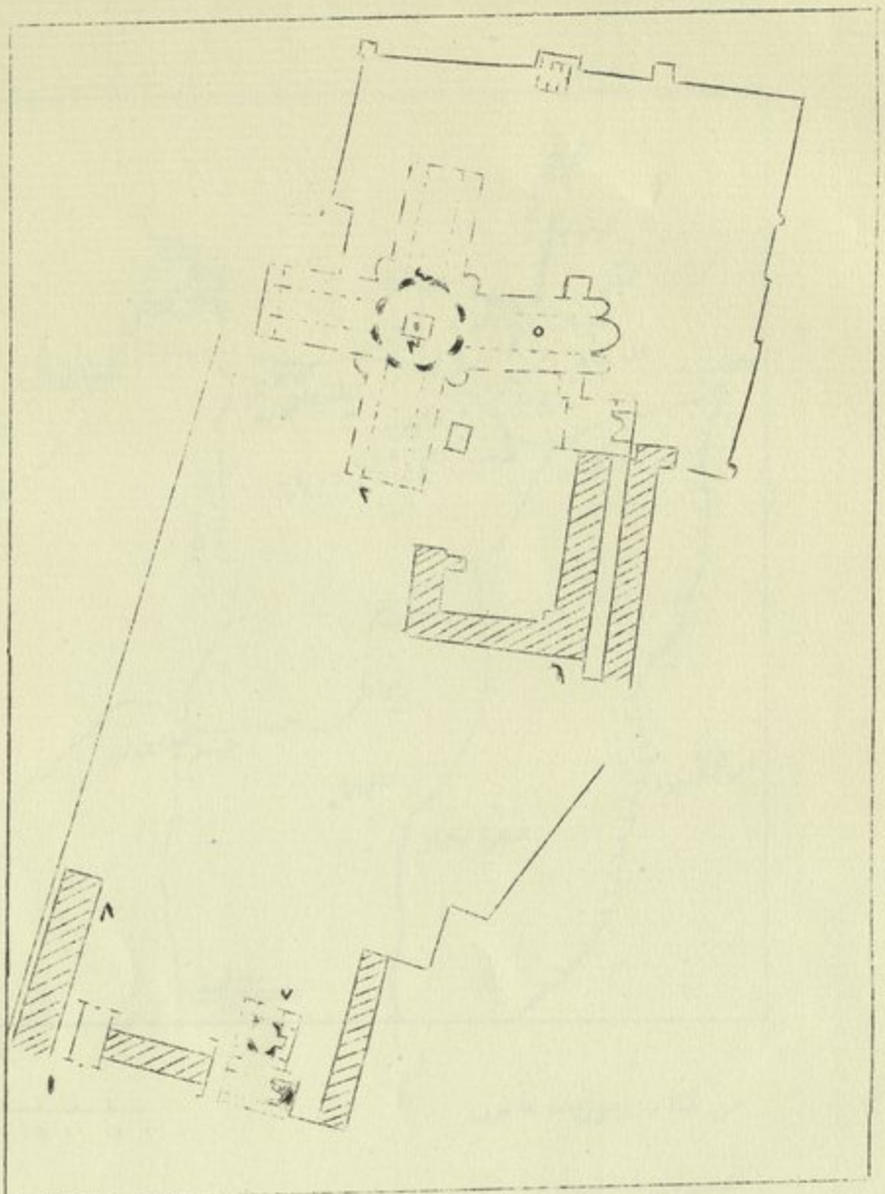

مخطط للقلعة وضع المهندس تشالنكو عن نشرة "سورية" التي اصدرتها الادارة العامة للآثار

١ ـ المدخل الخارجي
٢ ـ المدخل الداخلي
٣ ـ قاعدة العمود
٤ ـ البناء المثمن
٥ ـ الجناح الشرقي
٦ ـ ابنية الدير
٧ ـ بناء المعمودية
٨ ـ المضافات

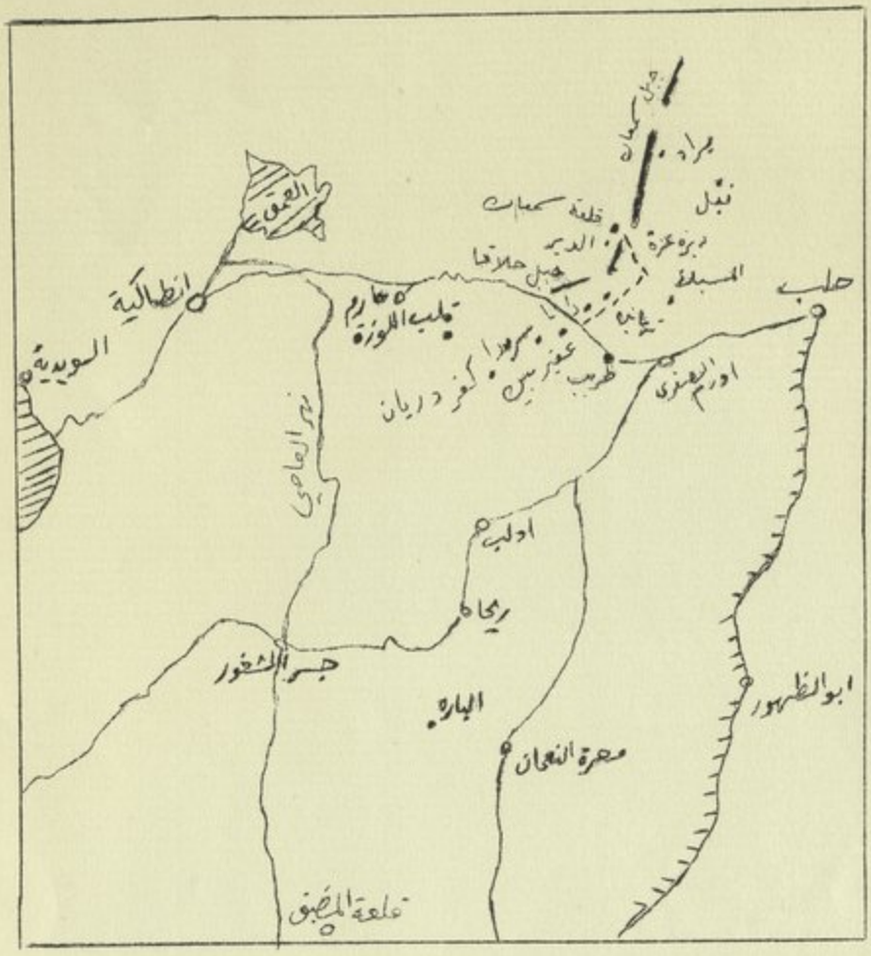

٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥ ٣٠ كم

عن كتاب جوزيف ماترن

ـــ الانهار

ـــ خطوط حديدية

—— طرق معبدة

---- طرق غير معبدة

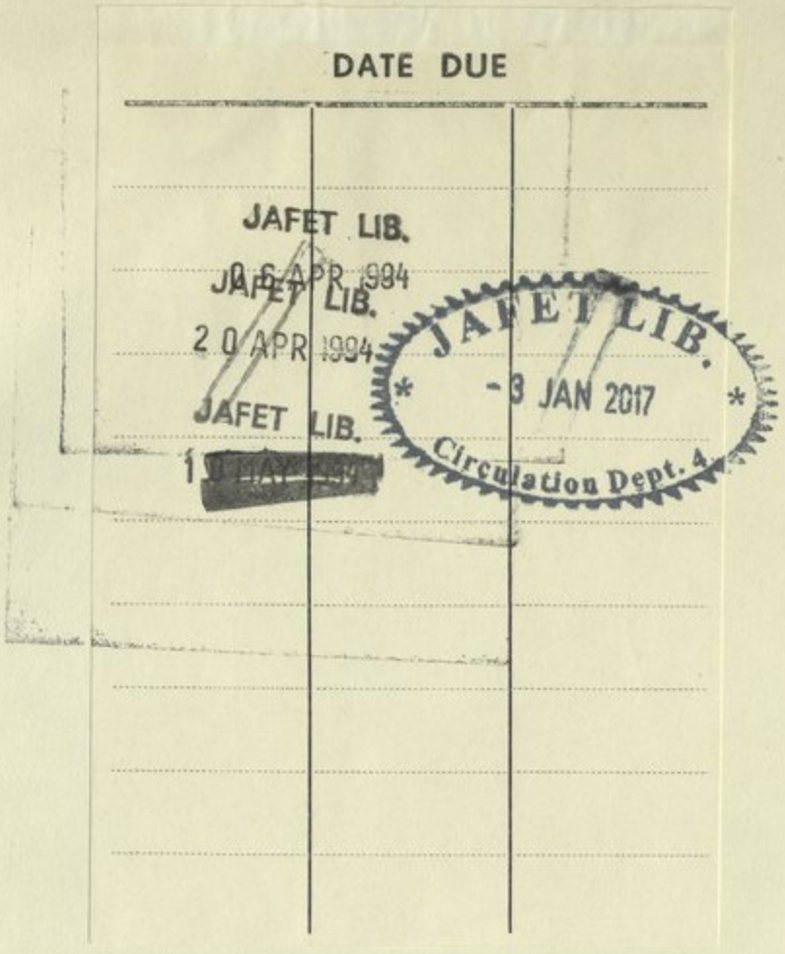
DATE DUE
JAFET LIB.
JAFET LIB.
20 APR 1994
JAFET LIB.
JAFET LIB.
- 3 JAN 2017
Circulation Dept. 4

F:728.81:R138qA:c.1
رافق، عبد الكريم
قلعة سمعان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01064853

F:728.81:R138qA
رافق
F
728.81
R138qA